الشك بين المتكلمين والفلاسفة

The Theological Foundations of the Issue of Divinity in Ash'ari Thought

إعداد

د/ عبدالسلام إبراهيم السيد شرف الدين

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالمنوفية

الشك بين المتكلمين والفلاسفة

عبدالسلام إبراهيم السيد شرف الدين.
قسم العقيدة والفلسفة- كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية -بالمنوفية – شبين الكوم- جامعة الأزهر الشريف- جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني:abdelsalamsharaf.adv@azhar.edu.eg

الملخص:

الشك من المناهج الرئيسة التي يعتمد عليها الفكر الإنساني بصفة عامة، والكلامي والفلسفي بصفة خاصة، وقد عرف الفكر الإنساني هذا المنهج بصور مختلفة، فقد عرفه أحيانا في صورة الشك المذهبي، وهو في هذه الصورة كان معول هدم للحقائق والقيم والثوابت، وعرفه أحيانا أخرى في صورة الشك المنهجي، وهو في هذه الصورة كان منهجا للبناء الفكري، والتزود المعرفي، ووسيلة من وسائل الوصول إلى الحقائق اليقينية، والشك في صورته الأخيرة هذه كان منهجا فكريا اعتمده المتكلمون والفلاسفة في بحوثهم الفكرية والعقدية، وإذا كان المتكلمون والفلاسفة استخدموا الشك المنهجي وسيلة للبناء الفكري والتزود المعرفي الذي يصل بهم إلى الحقائق المرجوة التي تقوم على اليقين، فإنهم في الوقت ذاته حاربوا الشك المذهبي الذي يكون به انهدام الحقائق وانهيار الثوابت، وضياع القيم، وانعدام المبادئ، وقد جاء هذا البحث ليناقش قضية الشك بمختلف أنواعه بين المدراس المختلفة، ثم كان التركيز على الشك المنهجي بين المتكلمين والفلاسفة، ليبرز موقف كلا الفريقين من الشك بنوعيه، ولبيان مدى اعتماد الشك المنهجي كمنهج من مناهج البحث عند المتكلمين والفلاسفة.

الكلمات المفتاحية: الشك ، المتكلمين، الفلاسفة، المنهجي، المذهبي.

The Theological Foundations of the Issue of Divinity in Ash'ari Thought

Abdel Salam Ibrahim Al-Sayed Sharaf Al-Din.
Department of Creed and Philosophy- Faculty of Fundamentals of Religion and Islamic Propagation, Menoufia University- Shibin El-Kom- Al-Azhar University.
Email: abdelsalamsharaf.adv@azhar.edu.eg

abstract :
Doubt is one of the main methods that human thought in general, and theological and philosophical thought in particular, depends on. Human thought has known this method in different forms. Sometimes it has known it in the form of sectarian doubt, and in this form it was a tool for destroying facts, values, and constants. Other times it has known it in the form of methodological doubt, and in this form it was a method for intellectual construction, cognitive acquisition, and a means of arriving at certain truths. Doubt in its final form was an intellectual method adopted by theologians and philosophers in their intellectual and doctrinal research. If theologians and philosophers used methodological doubt as a means for intellectual construction and cognitive acquisition that leads them to the desired truths based on certainty, then at the same time they fought sectarian doubt, which leads to the collapse of facts and the collapse of constants, the loss of values, and the absence of principles. This research came to discuss the issue of doubt in its various types between the different schools, then the focus was on methodological doubt between theologians and philosophers, to highlight the position of each group from Doubt of both types, and to demonstrate the extent to which methodological doubt is adopted as a research method among theologians and philosophers.

Keywords: Doubt , Theologians , Philosophers , Methodological , Sectarian.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله أبدأ، وبه أستعين، وبحمده أستزيد نعمة التوفيق، وعلى نبيه وحبيبه ومصطفاه أصلي وأسلم

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، قمر الهداية الإلهية وكوكب العناية الربانية، مصباح الرحمة المرسلة وشمس دين الإسلام، من تولاه مولاه بالحفظ والحماية والرعاية االسرمدية، وأعلى مقامه فوق كل مقام، وفضله على الأنبياء والمرسلين ذوي المراتب العلية، فكان للأولين مبدأً وللآخرين ختام.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد،،،

مدخل

يتناول البحث في مسائل علم الكلام ومسائل البحث قضايا كثيرة ومتنوعة، لعل من أبرز هذه القضايا على مائدة البحث الفكري، قضية الشك، وتأتي أهمية هذه القضية ليس فقط لكونها متعلقة بقطبين من أقطاب الفكر أعني: المتكلمين والفلاسفة، بل لكونها أيضا متعلقة بالفكر الإنساني بصفة عامة، فقد كانت قضية الشك حاضرة وبقوة في مختلف المراحل الزمنية التي مر بها الفكر الإنساني، فقد رأيناها قضية راسخة في أغوار الفكر اليوناني القديم، ورأيناها متداولة بين المفكرين والفلاسفة في مرحلة العصر الوسيط، ورأيناها مطروحة للنقاش في مرحلة العصر الفلسفي الحديث، ثم هي كانت منهجا للتثبت والوصول إلى الحقائق في مرحلة الفكر الإسلامي، ومن ثم رأينا مفكرا من أرباب المذاهب الكلامية وهو الإمام الغزالي اشتهر بمنهجة الشكي النقدي مستخدما إياه سلما يرتقي به ويصعد عليه نحو سماء الحقيقة، ولم يكن الشك المنهجي وسيلة لغاية طيبة عند

الإمام الغزالي وحده، بل كان كذلك عند جل المفكرين من الفلاسفة والمتكلمين.

أهمية الموضوع

يستمد هذا الموضوع أهميته من خلال القضية التي يرتكز عليها في المناقشة والتحليل والبيان وهي قضية الشك، وهي قضية لم يخل منها عصر من العصور، وقد استعلمت في جل هذه العصور إما استعمالا إيجابيا، وإما استعمالا سلبيا، فاستعمالها السلبي كان شائعا في العصر اليوناني عند طائفة الشكاك، الذين استخدموا الشك كوسيلة لهدم الحقائق وإنكار المبادئ والقيم، وافترضوا أن الحقيقة إذا وجدت إنما تكون عند الإنسان فقط ومن ثم فقد اشتهرت مقولة: الإنسان مقياس كل شيء، فالحقائق عندهم على فرض وجودها فهي نسبية تختلف من شخص إلى شخص، ومن مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ولا يخفى ما في هذا المنهج من إسفاف وشطط فضلا عما يحدثه هذا المنهج من رجعية على مستوى القيم والمبادئ، وأيضا على مستوى الفكر إذ يكون التشكيك هنا ليس فقط في الحقيقة بل في المصادر المعرفية التي يستقي منها الإنسان هذه الحقيقة.

أما الاستعمال الإيجابي فقد تمثل في الشك المنهجي، الذي كان وسيلة إلى غاية معينة وهي الوصول إلى يقينية الحقائق، فالمفكر في هذا المنهج يشك فيما لديه من معلومات معرفية ليس شكا لذات الشك، إنما شكا لذات الحقيقية، حتى يختبر هذه المعلومات والمعارف، فيبني على ما تحقق صدقه لديه ويستبعد ما ثبت عدم صدقه، وبالتالي عندما يصل إلى حقيقة معينة، فإن أسمى سمات هذه الحقيقة تكون اليقينية.

أسباب اختيار الموضوع

أولا: استعراض المنهج الشكي عموما في الفكر الإنساني وبيان حضوره كمنهج متأصل لديه.

ثانيا: بيان أصالة الشك المنهجي كمنهج من مناهج البحث لدى المتكلمين والفلاسفة.

ثالثا: إيضاح أن الشك المنهجي عند المتكلمين والفلاسفة كان وسيلة للصولو إلى يقينية الحقائق.

رابعا: تقرير أن ثمة تباين في استعمال الشك المنهجي قلة وكثرة بين المتكلمين لاسيما بين المعتزلة وغيرهم من المتلكمين، وبين هؤلاء والفلاسفة.

حدود الدراسة

المراد بلفظ المتكلمين في عنوان الدراسة: الشمول، إذ المقصود منه العلماء الذين مارسوا علم الكلام في مختلف مدارسه، فلا يفرق بينهم من حيث الزمان ولا من حيث المدرسة الفكرية الكلامية التي ينتمي إليها المتكلم، فالجامع بينهم هنا هو الممارسة لمنهج الشك، هذا ما يعول عليه هنا.

المراد بلفظ الفلاسفة في عنوان الدراسة: فما قيل عن المتكلمين يقال أيضاً عن الفلاسفة، بيد أن هنا فيما يتعلق بهذه الطائفة (الفلاسفة) قد يكون هناك توسع بعض الشيء، فقد بدا لنا أن يكون الحديث عن فلاسفة الإسلام بمختلف طبقاتهم وبيئاتهم سواء في الشرق ام الغرب، المهم أن يكون الجامع بينهم هو ما كان جامعاً بين المتكلمين من حيث الممارسة لمنهج الشك، بيد أنني آثرت أن يكون الحديث شاملا لفلاسفة الإسلام ولفلاسفة غير الإسلام من عصر المدرسة الفلسفية الحديثة، ولا ضير في هذا حيث كان المعول عليه في الحديث ليس عنصر الزمان أو المكان أو حتى الدين، إنما المعول عليه هنا ممارسة منهج الشك، وقد يكون هذا التوسع إثراءً للبحث، من ناحية تحديد ملامح الاتفاق أو الاختلاف في هذه الممارسة بين كافة

الممارسين على اختلافهم وتنوعهم، كما أن الحديث عن المتكلمين وبجانبهم فلاسفة الإسلام، في مقابل فلاسفة أوربا في الفترة الحديثة، قد يبرز لنا أصالة الشك المنهجي في الفكر الإسلامي، وأن علماء المسلمين كان لهم قصب السبق إلى هذه المنهجية العلمية، وأن هذه المنهجية لم تكن وقفا على رواد الفلسفة الغربية، بل سبقهم إليها رواد الفكر الإسلامي من متكلمين وفلاسفة، وإذا كان الفكر الإسلامي متمثلا في متكلميه وفلاسفته كانوا أسبق إلى الشك المنهجي من فلاسفة أو ربا، فإنهم بهذا التفرد يكونوا أول من اكتشف أهم قاعدة من قواعد البحث العلمي.

منهج الباحث:

بحث قضية الشك استدعى مسارا منهجيا قوامه عدد من المناهج البحثية العلمية، تمثلت هذه المناهج في التالي:

المنهج التاريخي (الاسترادي): وكانت وظيفة هذا المنهج استقصاء النصوص – ما أمكن – التي تتناسب مع البحث.

المنهج التحليلي: والوظيفة البحثية والعلمية لهذا المنهج لا غنى لباحث عنها، ومن ثم فقد استعنت بهذا المنهج لتحليل النصوص وما اشتملت عليه من مناهج وأفكار.

المنهج المقارن: استخدمت هذا المنهج نظراً لأن تناول قضية البحث كان بين عدد من المذاهب الفكرية والكلامية، ومن ثم فإننا نحتاج إلى المقارنة بين هذه الآراء لتوثيق موقف هذه المذاهب من القضية محل البحث.

المنهج الاستدلالي: قد يكون هذا المنهج متداخلا مع بعض المناهج العلمية الأخرى[١]، وأقربها المنهج التحليلي أو التاريخي، لكني أعني بهذا

١- خصوصا العلوم الرياضية، ومن ثم فقد عرفه الدكتور عبدالرحمن بدوي يقوله " المنهج الاستدلالي أو الرياضي وهو الذي نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون التجاء إلى التجربة، وهو منهج العلوم الرياضية خصوصا" مناهج =

المنهج في هذا البحث تتبع النصوص التي تتناسب مع الإطار المعرفي للبحث، بحيث تكون هذه النصوص ألصق بالبحث من كافة نواحيه: الموضوعية – الفكرية – المنهجية.

المنهج الاستنباطي: وقد استخدمت هذا المنهج لاستنباط ما توحي به النصوص الواردة في البحث من نتائج، معتمداً في هذا الاستنباط أيضاً على ما أوحت به المناهج المستخدمة في البحث لاسيما المنهج التحليلي، وهذه النتائج منها ما هو متضمن في ثنايا البحث من خلال فقراته ومباحثه، ومنها ما تم ذكره مفرداً في خاتمة البحث.

وبالإضافة إلى المناهج – الآنف ذكرها - المستخدمة في هذا البحث، اتبعت الإجراءات البحثية التالية:

أولا: عزوت الآيات القرآنية إلي سورها، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية.

ثانيا: خرجت الأحاديث الواردة في البحث من كتب الحديث المعتمدة.

ثالثا: وثقت النقول والأقوال من مصادرها – ما أمكن ذلك – وإن كان النقل بنصه جعلته بين علامتي تنصيص وإن كان بتصرف نبهت على تصرفي فيه.

رابعا: المصادر التي رجعت إليها في هذا البحث وثيقة الصلة بموضوع البحث وقضيته الرئيسة.

خامسا: اتبعت في توثيق المصادر والمراجع في هذا البحث منهجاً قوامه كالتالي: ذكر المصدر – ذكر المؤلف – ذكر المحقق أو المقدم أو

=

البحث العلمي: د/عبدالرحمن بدوي، ط: وكالة المطبوعات – الكويت، ط الثالثة سنة ١٩٧٧م، صـ١٨

المعلق إن وجد – ذكر دار الطبع – مكان الطبع – ذكر رقم الطبعة – ذكر تاريخ الطبع – ذكر الجزء – ذكر رقم الصحيفة، وهذه المنهجية تكون عند ذكره في أولِ ورودٍ له، أما في حالة تكراره فأكتفي بذكر الاسم والمؤلف ورقم الجزء ورقم الصحيفة، وفي حالة تكرار المرجع في نفس الصحيفة فأشير إليه بـ المصدر السابق، وفيما يتعلق بكتب الحديث خاصة، فإني أذكر اسم المصدر أولا، ثم اسم المؤلف، ثم المحقق إن وجد، ثم دار الطبع ومكانه ورقم الطبعة وتاريخ الطبع إن وجد، ثم ذكر الكتاب، ثم ذكر الباب، ثم ذكر رقم الحديث، ثم ذكر الجزء، وأخيرا ذكر رقم الصحيفة.

سادسا: كان هناك تدخل بالتعليق والتحليل والشرح وغير ذلك حسب ما يقتضيه المقام.

سابعا: وضعت فهرسا يوضح المصادر والمراجع التي رجعت إليها في البحث، وقد رتبته حسب الترتيب الهجائي.

خطة البحث:

انتظم هذا البحث على خطة كانت على النحو التالي:

- **المقدمة:** وقد اشتملت على: مدخل للبحث، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وحدود الدراسة، ومنهج الباحث، وخطة البحث.
- **التمهيد:** وفيه: جاء الحديث عن تعريف الشك من ناحية اللغة ومن ناحية الاصطلاح.
- **المبحث الأول:** العلاقة بين الشك والمعرفة.
- **المبحث الثاني:** أقسام الشك بين المتكلمين والفلاسفة.
- **المبحث الثالث:** استعمالات الشك عند المتكلمين والفلاسفة.
- **المبحث الرابع:** الشك بين المتكلمين والفلاسفة.

وقد أتبعت هذه المباحث بعدد من النتائج ذكرتها في خاتمة البحث مشفوعة بثبت المصادر والمراجع.

وبدءاً وختاماً أتضرع إلى الله تعالى أن يوفقني لما يحب ويرضى، وأن يجعل قولي مقبولا وعملي خالصا متقبلا، وأن يجنبني النقص والذلل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحبه بقدر عظمة ذاته في كل وقت وحين.

*****

التمهيـــد

في كثير من الأحيان يكون اليقين متولداً عن شك، فهذه حقيقة تكاد تكون ملموسة عند كثير من الناس فضلاً عن العلماء والمفكرين، ومن هنا كانت عناية العلماء بمبحث الشك.

ولما كان البحث في أي قضيةٍ علميةٍ أو مسألةٍ فكريةٍ يتطلب أولاً بيان معناها من ناحية اللغة، وثانيا من ناحية الاصطلاح، لما لهما من دور هام في تأصيل القضية المبحوثة، لأن كل علم وفن له ألفاظه وله حدوده المعرفية التي تختص به دون العلوم الأخرى، ومن هنا كان تمايز العلوم، وهذا التمايز لا يلغي التداخل بينها، بيد أن كل لفظ من الألفاظ قد يكون له استعماله المعين وإطلاقه المخصص في علم ما، الذي يخالف إطلاقاً واستعمالاً آخرين في علم آخر، ومن ثم فقد كانت الحاجة ملحةً لتعريف ألفاظ ومفردات القضية المبحوثة لبيان معناها الذي سيدور عليه البحث، واصطلاحها الذي عرفت به في العلم الذي ينضوي تحت لوائه هذا البحث ويدور في فلكه.

أولا: التعريف بالشك من الناحية اللغوية

تدور هذه الكلمة في فلكها اللغوي حول ما يتناقض مع اليقين، فتأتي لتدل على عكس اليقين أو ضده، صرح بهذا الفراهيدي حيث قال "الشَّكُّ: نقيض اليقين"[١]، وهناك معنى آخر أشار إليه الفراهيدي، مما يتعلق بهذه

١- كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د/مهدي المخزومي، د/إبراهيم السامرائي، ط: دار ومكتبة الهلال – بدون تاريخ، جـ٥، صـ٢٧٠، يكاد يصرح بهذا المعنى جُلُ أهل اللغة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: ابن منظور، انظر: لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) ط: دار صادر – بيروت، ط الثالثة سنة ١٤١٤هـ، =

الكلمة (الشك) من معان لغوية، وهو: الخرق، فقال "وشكَكْتُه بالرمح: خرقته"[1]، وكأني به يشير إلى أن الشك إنما يخرق معارف آتية من طرق لا تصح أن ينبني عليها شيء من اليقين، كالمعارف الآتية من طرق التقليد واتباع الأهواء وغيرها من أمثال هذه الطرق التي لا تنتج معرفة يقينية، كما سيأتي بيانه في ثنايا البحث.

ومما يحتمله الجذر اللغوي لكلمة (الشك) من المعاني، التداخل والاختلاط، وكأن الشاك تداخلت عليه الأمور واختلط بعضها ببعض، وقد أشار إلى هذا المعنى، ابن فارس في معجمه حيث قال " (شَكَّ) الشِّينُ وَالْكَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُشْتَقٌّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى التَّدَاخُلِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ شَكَكْتُهُ بِالرُّمْحِ، وَذَلِكَ إِذَا طَعَنْتَهُ فَدَاخَلَ السِّنَانُ جِسْمَهُ "[2]، فالإنسان حين يكون بين أمرين لا يتيقن أحدهما، فهو في هذا الحال شاك،

=

جـ١٠، صـ٤٥١، ابن سيده، انظر: المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ) تحقيق: خليل إبراهم جفال، طـ: دار إحياء التراث العربي – بيروت، طـ الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ٣، صـ٤٧٣، وأبومنصور الأزهري، انظر: تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، طـ: دار إحياء التراث العربي – بيروت، طـ الأولى سنة ٢٠٠١م، جـ٩، صـ٣١٦، وأبوالعباس الحموي الذي عبر عن تناقض الشك مع اليقين بقوله: الشَّكُّ خِلَافُ الْيَقِينِ، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) طـ: المكتبة العلمية، بيروت – بدون تاريخ، جـ١، صـ٣٢٠

١- العين: الفراهيدي، جـ٥، صـ٢٧٠

٢- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طـ: دار الفكر، طـ سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، جـ٣، صـ١٧٣

ويقرر ابن فارس اشتقاق الشك من هذا المعنى فيقول " وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشَّكُّ، الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْيَقِينِ، إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاكَّ كَأَنَّهُ شُكَّ لَهُ الْأَمْرَانِ فِي مَشَكٍّ وَاحِدٍ، وَهُوَ لَا يَتَيَقَّنُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَمِنْ ذَلِكَ اشْتِقَاقُ الشَّكِّ "[١]

وقريب من هذا المعنى الذي صرح به ابن فارس، يُطالعنا صاحب اللسان بمعاني أخرى للشك، تقترب من معنى التداخل والاختلاط، ألا وهي: اللزوق، واللزوم، واللصوق، والاتصال – على حد تعبير ابن منظور– ولعل هذه المعاني مما تفيد شدة الاختلاط والالتباس الذي وقع فيه الشاك عندما لا يحصل له يقين في أحد الأمور التي أمامه والتي يجب عليه أن يتخير منها واحداً، يقول ابن منظور " والشك: لزوق العضد بالجنب .. والشك: اللزوم واللصوق .. والشك: الاتصال واللصوق "[٢]

كذلك تأتي كلمة الشك بمعاني أخرى بيد أنها تترادف مع المعاني السالفة الذكر، كالريب، والالتباس، والتردد، وقد جمعها صاحب المصباح المنير في قوله " الشَّكُّ الِارْتِيَابُ .. فَيُقَالُ شَكَّ الْأَمْرُ يَشُكُّ شَكًّا إذَا الْتَبَسَ وَشَكَكْتُ فِيهِ .. الشَّكُّ خِلَافُ الْيَقِينِ فَقَوْلُهُمْ خِلَافُ الْيَقِينِ هُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ سَوَاءٌ اسْتَوَى طَرَفَاهُ أَوْ رَجَحَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ "[٣]

إذاً كلمة(الشك) من الناحية اللغوية، تدور على معنى رئيس أو جامع وهو: ضد اليقين، وينتظم في إطار هذا المعنى الجامع والرئيس معاني أُخَر تدل عليه، كالتداخل، والاختلاط، واللزوق، واللزوم، واللصوق، والاتصال،

١– معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، جـ٣، صـ١٧٣

٢– لسان العرب: ابن منظور، جـ١٠، صـ٤٥٢، بتصرف بسيط.

٣– المصباح المنير: أبو العباس الحموي، جـ١، صـ٣٢٠، بتصرف بسيط.

والريبة، والالتباس، والتردد .. وكلها مما يدل على الحيرة والاضطراب وعدم التيقن.

ثانيا: التعريف بالشك من الناحية الاصطلاحية

لا غرو أن الجذور اللغوية للكلمة تؤثر بشكل كبير في المعاني الاصطلاحية وتضفي عليها كثيرا من دلالاتها، وكلمة الشك يتضح فيها هذا بشدة، فعندما نستعرض المعاني الاصطلاحية لها، نجدها تدور أيضا حول التردد والحيرة والاضطراب وكلها – كما سبق – تشير إلى عدم التيقن والجزم في الشيء محل النظر، يعرف الإمام الجرجاني الشك فيحده بقوله " الشك: هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك"[1]، ومما يدل على ما ذهبنا إليه – آنفا – أن الجرجاني صَدَّر تعريف الشك بكلمة وردت في المعاني اللغوية وهي كلمة التردد، ويعرفه بتعريف آخر يدل على معنى الحيرة والاضطراب فيقول " الشك: ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما"[2]

ويعرفه الإمام الجويني بتعريف يقترب من السابق، بيد أنه يشير إلى أن الأمرين اللذين يُتَرَدد فيهما يصلح كليها لأن يكونا اعتقادين، وقد لا يصلحان، بيد أن الشك في هذه المرحلة أو تلك لم يترجح عنده واحد منهما، يقول الجويني " الشّكّ ما استوى فيه اعتقادان أو لم يستويا، ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة الظهور الذي يبني عليه العاقل الأمور المعتبرة "[3]

١- كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، صـ١٢٨

٢- التعريفات: الجرجاني، صـ١٢٨.

٣- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ) تقديم =

ويعرفه الكفوي من ناحية الشاك، فيقرر أن الأمور محل النظر تساوت عنده فليس أحدهما يترجح على الآخر، يقول " الشَّك: هُوَ اعْتِدَال النقيضين عِنْد الْإِنْسَان وتساويهما"[١]، ويعرفه الكفوي من ناحية الأمور المشكوك فيها، فيصرح أنها تقع للشاك على جانب من السوية، فكلاهما يقبلان الوقوع والتحقق، يقول " وَإِن كَانَ طرف الْوُقُوع واللاوقوع على السوية فَهُوَ الشَّك"[٢]

أما السمين الحلبي فقد عرف الشك من ناحيتي الشاك والأمور المشكوك فيها، وجمع بينهما، فقال " الشك في الأصل: اعتدال النقيضين وتساويهما في النفس"[٣]

ويعتبر التعريف الوارد في المعجم الفلسفي من أوعى التعريفات للشك، حيث جمع هذا التعريف ما يتعلق بالمعاني التي تحوم حول الإنسان (الشاك) والمعاني التي تدور حول الأمور التي يتعلق بها نظر الإنسان، بل

=

وإشراف ومراجعة: د/ رفيق العجم، تحقيق: د/علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د/عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د/ جورج زيناني، ط: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٩٦م، جـ١، صـ١٠٣٨، وانظر أيضا: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت – بدون تاريخ، صـ٥٢٨.

١- الكليات: الكفوي، صـ٥٢٨

٢- الكليات: الكفوي، صـ٥٢٨

٣- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦ هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، ط الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ٢، صـ٢٨٥

إنه أضاف إلى الجانب الأول (الشاك) لمحة سيكلوجية تتعلق إما بضعف ملكة التحليل عنده، وإما بغلبة الجهل عليه، ومن هنا يعد هذا التعريف – كما سلف – من أوعى التعريفات التي وُضِعَت لبيان ماهية الشك، يقول د. جميل صليبا " الشك هو التردد بين نقيضين لا يرجح العقل أحدهما على الآخر، وذلك لوجود أمارات متساوية في الحكمين، أو لعدم وجد أية أمارة فيهما، ويرجع تردد العقل بين الحكمين إلى عجزه عن معاناة التحليل أو إلى قناعته بالجهل "[١]

ومما نستطيع أن نقف عليه في التعريفات السابقة، أن أصحابها قد عَرَّفُوا الشك تعريفاً أقرب إلى الوصفية، سواء من ناحية الإنسان (الشاك) أم من ناحية الأمور التي هي محل النظر، وكلاهما قد وصفا بالتردد والحيرة والاضطراب والإبهام والغموض، فالحيرة والاضطراب والتردد والالتباس، معاني تتعلق بالإنسان (الشاك) أما المعاني الأخرى من الغموض والإبهام فهي متعلقة بالأمور محل النظر والبحث.

*****

١– المعجم الفلسفي: د/جميل صليبا، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، مكتبة المدرسة، بيروت – لبنان، ط سنة ١٩٨٢م، جـ١، صـ٧٠٥

المبحث الأول
العلاقة بين الشك والمعرفة

مدخل

البحث في قضية الشك يتصل بالبحث في نظرية المعرفة، ذلك لأن البحث في المعرفة إنما يدور حول ثلاث مسائل تُشكل حدود البحث في هذه النظرية، أعني بهذا: إمكان المعرفة – طبيعة المعرفة – مصادر المعرفة[١].

هذه المسائل الثلاث تتداخل قرباً وبعداً مع مبحث الشك، لاسيما المسألة الأولى، لأن العلماء والفلاسفة والمفكرون الذين أدلوا بدلوهم في هذه المسألة انقسموا إلى فريقين، فريق يرى إمكان المعرفة وأن الإنسان في استطاعته أن يُحَصِل المعرفة، وهذه المعرفة من الممكن أن تكون معرفة يقينية إذا ما التمس الإنسان لها الوسائل والأسباب الصحيحة، هذا الفريق يُسمون بأصحاب مذهب اليقين.

في مقابل هذا الفريق، فريق آخر يُعرف بالشك ويُسمون بـ الشكاك، وهؤلاء وإن لم يكونوا على درجة واحدة، إلا أنهم يذهبون إلى عدم إمكان المعرفة وصعوبة تحصيلها نظراً للشك في الوسائل والآليات التي تُكتسب من خلالها المعرفة، وهؤلاء – كما أسلفنا – ليسوا على درجة واحدة، لأنهم وإن كانوا يقولون بعدم إمكان المعرفة أصلا، ففيهم من اتخذ من الشك طريقا للوصول إلى المعرفة.

هذا الاستهلال كان بمثابة التقديم لهذا المبحث الذي نحاول فيه أن نميط اللثام عن كنه العلاقة بين الشك والمعرفة. انتهى.

١– أحيانا يستعاض بكلمة: طرق المعرفة، بدلا من كلمة: مصادر المعرفة، انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والسنة: د/راجح عبدالحميد الكردي، ط: مكتبة المؤيد – الرياض، ط الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، صـ٢٧

تكاد تكون العلاقة بين الشك والمعرفة علاقة وثيقة الصلة، وذلك من وجهين، الأول منهما: أن الشك في حد ذاته قد يكون طريقا موصلا إلى المعرفة، الثاني منهما: أن غياب الشك إنما يعني حضور المعرفة، والعكس صحيح، فغياب المعرفة إنما يعني حضور الشك، وهذا يوضح لنا أن ثمة علاقة قوية بين كلٍ من الشك والمعرفة، فالشك لا يكون ولا يتأتى إلا في غياب المعرفة، فإذا غابت المعرفة فإن غيابها يتولد عنه الشك وما يقاربه من الظن والريبة والحيرة والتردد إلى غير ذلك من المعاني التي تدور في فلكه وتقترب من معناه، أما إذا حضرت المعرفة فإن هذا مُؤذن بزوال الشك وما في معناه، وبهذا تتضح قوة العلاقة بين الشك والمعرفة، فالشك في أحد أهم معانيه، وأحد أسمى صوره يُمَثِل قاعدة لنظرية المعرفة، يقول د. توفيق الطويل " إذا عرض العقل لدراسة مشكلة ثم عجز عن فهمها أو تقديم حل لها أو عزَ عليه أن يتوصل إلى يقين بصددها مال إلى التوقف عن إصدار حكم بشأنها، وتعليق الحكم هو المراد بالشك كنظرية في المعرفة "[1]

وفيما يتعلق بعلاقة المعرفة بالشك وما يقاربه من معاني أو يتضاد معه في المعنى، فإن أقرب الألفاظ إلى لفظ الشك والتي تمت لها بصلة قريبة، هي ألفاظ: الظن، وحين نتبين علاقة الظن من حيث قربه أو بعده عن المعرفة، فإنه يكاد يكون أقرب إلى المعرفة من الشك، ذلك لأن الظن وإن كان فيه تردد بين نقيضين إلا أنه لأحدهما أقرب من الآخر، هذا القرب في حد ذاته هو دلالة على علو المستوى المعرفي للظن على الشك، فهو بهذا القرب يكون قد اقترب إلى المعرفة وإن لم يكن قد أدركها بعد، لذا عرفه الجرجاني في إطار تعريفه للشك مميزا بينهما بأن الشك ما استوى فيه طرفاه، ثم وضع قيدا مُمَيزا للظن فقال "فإذا ترجح أحدهما على الآخر فهو

١- أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، طـ: مكتبة النهضة – مصر، طـ الثالثة سنة ١٩٥٨م، صـ٢٢٩

ظن"[١]، ونفس هذا المعنى صرح به الكفوي عند تعريفه الظن، فقال " وَالظَّن: التَّرَدُّد الرَّاجِح بَين طرفِي الِاعْتِقَاد غير الْجَازِم "[٢]، وهذا أيضاً هو المعنى الذي صرح به السمين الحلبي عندما عرف الظن بقوله "والظن: ترجح أحد الطرفين على الآخر نفيًا وإثباتًا"[٣]، ونلمح في هذا التعريف قيداً زائداً عما في تعريف الجرجاني والكفوي، وهو: أن الترجيح الذي يتميز به الظن عن الشك ورد عند السمين الحلبي في جانبي الإثبات والنفي، فإذا ترجح أحد الطرفين في جانب الإثبات كان ظنا، وأيضا إذا ترجح أحد الطرفين في جانب النفي كان ظنا، وليس هذا المعنى مما غاب عن الجرجاني والكفوي، بيد أنه منصوص عليه عند السمين الحلبي، ومما لا يخفى أن التعريف كلما كان مُوضِحا للمُعَرَّف كان أصح وأقوى.

وما سلف بيانه يؤكد لنا أن الشك يأتي في مرتبة أدنى في المستوى المعرفي من الظن، ذلك لأن الشك هو التردد بين نقيضين دون وجود مرجح بينهما، أما الظن فإنه وإن كان يتردد بين النقيضين إلا أنه يتميز بوجود مرجح، وهذا ما يجعله في مرتبة معرفية أعلى من الشك.

أما اليقين فإنه يأتي في أعلى مراتب المستويات المعرفية، نظراً لأنه تتم فيه عملية الترجيح بين النقيضين، أو ما يمكن أن نسميه بإزاحة الشك، وهذا الترجيح هو ترجيح مؤكد لارتكانه على اعتقاد جازم، وهذا ما يجعله في قمة المستوى المعرفي، ومن هنا تأسست تعريفات اليقين على هذه المعاني، فعلى معنى إزاحة الشك، استخدمه الفراهيدي في تعريف اليقين، فقال "

١- التعريفات: الجرجاني، صـ١٢٨

٢- الكليات: الكفوي، صـ٥٩٣.

٣- عمدة الحفاظ: السمين الحلبي، جـ٣، صـ١٤

اليَقَنُ: اليَقِينُ، وهو إزاحة الشك، وتحقيق الأمر"[١]، وعلى معنى جزم الاعتقاد الذي لابد من توافره في بناء اليقين، صرح به الكفوي حين عرف اليقين، فقال " الْيَقِين: الِاعْتِقَاد الْجَازِم الثَّابِت المطابق للْوَاقِع "[٢]، وعلى معنى جزم الاعتقاد بأن الشيء كذا ولا يمكن إلا أن يكون على هذا الوجه من الاعتقاد، اختاره قطب الدين الرازي في تعريف اليقين، فقال " واليقين هو اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاده بأنه لا يمكن أن يكون إلا كذا اعقادا مطابقا لنفس الأمر غير ممكن الزوال "[٣]، وهذا التعريف كما يرى القارئ الكريم قد أضاف قيودا ليست ظاهرة في التعريفات السابقة، مما يجعله تعريفا جامعا مانعا[٤]، وعلى معنى أنه حالة تعبر عن استقامة الذهن وعدم تحيره، ورد في الموسوعة الفلسفية " اليقين لفظة تدل على الحالة التي يستقيم فيها الذهن كلما أدرك الإنسان شيئا، واعتقد بإن إدراكه مطابق للشيء بعينه، وبأن الشيء لا يمكن أن يكون إلا هكذا أي كلما أدركه "[٥]

١- العين: الفراهيدي، جـ٥، صـ٢٢٠

٢- الكليات: الكفوي، صـ٩٧٩

٣- تحرير القواعد المنطقية شرح الرسالة الشمسية: قطب الدين محمود بن محمد الرازي (المتوفى سنة ٧٦٦هـ) طـ: مصطفى البابي الحلبي – مصر، طـ الثانية سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، صـ١٦٦

٤- لهذا نجد بعض العلماء قد تابعوا الرازي في هذا التعريف، انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: التهانوي، جـ٢، صـ١٨١٢، التعريفات: الجرجاني، صـ٢٥٩

٥- الموسوعة الفلسفية العربية: مجموعة من العلماء، بإشراف: د/معن زيادة، طـ: معهد الإنماء العربي، طرابلس – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٨٦م، جـ١، صـ٨٤٨

وثمة علاقة قوية بين اليقين والشك[١]، لأن الشك قد يكون مدخلا لليقين، فقد لا يتأتى اليقين إلا بعد مرحلة يسبقه فيها القلق والشك والحيرة والتردد الذي يتولد عنه اليقين بعد هذا، وهذه العلاقة ما هي إلا علاقة بين الشك كأقل مستوى من مستويات المعرفة، وبين اليقين الذي يمثل أعلى مستوياتها، فأحيانا يتولد اليقين من رحم الشك، وأخرى يكون الشك بداية لليقين، وهذا يبرز لنا أهمية الشك ودوره فيما يتعلق بأهم الأمور التي لابد فيها من اليقين، أقصد: الإيمان، فثمة إيمان ثابت له جذوره الراسخة، وثمة إيمان آخر قد تزعزعه عوادي الزمن وصوارف الشكوك والأوهام، أما الأول فهو المسبوق بالشك الذي انقلب في قلب صاحبه بعد رحلة من اختبارات شكه إلى يقين جازم، لذا يقول أحد الباحثين " إن العاقل الذي لا يمور صدره بعوارض اضطراب النفس وفساد المزاج، يحاكم أدلة الإيمان والكفر بما يحاكم به ما ألفه من مسائل "[٢]، فالمحاكمة المقصودة هنا هي الشك الذي يطلبه صاحبح كمقدمة تحققية ليصل منها إلى يقين، إذ الشك في أحيان كثيرة يقود إلى أسمى درجات المعرفة وهو اليقين الجازم الذي يُبَصِّر صاحبه بحقائق الدين والإيمان، على العكس من الإيمان غير المسبوق بالشك فقد يكون – في معظم أحواله – إيمانا مزعزعا غير مستقر سرعان ما ينهار تحت تأثير موجات مضطربة من الشكوك والأوهام، ويكون المؤمن على هذا النحو عرضة لأن تتخطفه سوانح الأفكار، وتجتاله معارضات الوهم عن طريق الإيمان الحق.

١- العلاقة هنا ليست من نوع الديمومية، بل المقصود منها علاقة في معظم أحوال اليقين، أقول في معظم الأحوال، لأن ثمة أحوال قد تفتقد فيها هذه العلاقة.

٢- براهين وجود الله في النفس والعقل: د/سامي عامري، ط: دار تكوين للدراسات والأبحاث – السعودية، ط الأولى سنة ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، صـ٢٨

وقولنا السالف أن اليقين يأتي في أعلى مراتب المستويات المعرفية، إنما نقصد به اليقين في أعلى درجاته، حيث إن اليقين له درجات ثلاث، وكلها وردت في القرآن الكريم، أولها: علم اليقين[1] وذلك في قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ {التكاثر:٥]، ثانيتها: عين اليقين، وذلك في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ {التكاثر:٧]، ثالثتها: حق اليقين وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الواقعة:٩٥]، وكل هذه الدرجات تتفاوت فيها درجة المعرفة، ففي الدرجة الأولى (علم اليقين) تقوم يقينية المعرفة فيها على الخبر الصادق، وفي الدرجة الثانية (عين اليقين) تقوم يقينية المعرفة فيها على المشاهدة، وفي الدرجة الثالثة (حق اليقين) تقوم اليقينية فيها على الممارسة التطبيقية في جُلِ جوانبها، وهذه الدرجات تُعطي نسباً معرفية مختلفة تتدرج بتدرج هذه الدرجات تدرجاً تصاعدياً، فهي في الثانية (عين اليقين) أعلى منها في الأولى (علم اليقين) وفي الثالثة (حق اليقين) أعلى من كليهما، وهذا يتضح من خلال الوقوف على ماهية موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام الوارد في القرآن الكريم، لما طلب من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ﴾

١- وكونه أول درجة من درجات اليقين، فلا يُخَيَّلُ إليك أن درجة اليقين فيه ضعيفة أو دون سواها في التحقق والتثبت، كلا إنما هي هذه الدرجات أشبه بالمقامات عند السادة الصوفية، وجميعها تتلاقى في الكشف عن المعلوم انكشافا تاما لا يبقى معه ريبة أو ظن أو يتخلله وهم، ومن ثم فقد حد الإمام الغزالي هذه الدرجة (علم اليقين) بقوله " العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم " المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال: حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، تحقيق وتقديم: د/جميل صليبا، د/كامل عياد، ط: دار الأندلس، بيروت – لبنان، ط سنة ١٩٦٧م، صـ٦٤

[البقرة:٢٦٠]، فهذه الآية الكريمة يستند إليها البعض في القول بأن إبراهيم عليه السلام نازعته نزعة شكية، ورغم ما يحتمل هذا الكلام من خطأ، إلا أنه قد يحمل إشارة إلى الصواب إذا ما فهمنا الشك على حقيقته في هذه القضية، وأن المراد منه الانتقال من مبدأ يقيني إلى مبدأ أعلى منه، أما القول بأن إبراهيم عليه السلام شك مطلقا بما توحي به عمومية الإطلاق، فهذا غير مقبول، وقد استند هؤلاء إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "نحن أحق بالشك من إبراهيم .."[١]، وهذا أيضا لا يسلم لهم، إذ الحديث في معناه ينفي الشك عن إبراهيم عليه السلام، وإلا كيف يدرجه الإمام مسلم – رحمه الله– في باب وسمه بـ زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، وهذه لمحة طيبة منه رضي الله عنه تدل على حسن فهمه، وعلو مشربه، وصفاء تذوقه، كذلك فمما توحي به ألفاظ الحديث أن إبراهيم لو شك لكنا أحق بالشك منه ولما لم نشك فكذا إبراهيم لم يشك، فأين الشك إذاً عند خليل الرحمن؟ وهذا المعنى صرح به ابن قتيبة عند تأويل هذا الحديث، فقال " قَالَ قَوْمٌ سَمِعُوا الْآيَةَ: شَكَّ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَشُكَّ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَوَاضُعًا مِنْهُ، وَتَقْدِيمًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى نَفْسِهِ، يُرِيدُ: أَنَّا لَمْ نَشُكَّ، وَنَحْنُ دُونَهُ، فَكَيْفَ يَشُكُّ هُوَ؟ "[٢]، فتلفظ النبي

١- جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، انظر: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت – بدون تاريخ، كتاب: الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم: ٢٣٨، جـ١، صـ١٣٣

٢- تأويل مختلف الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) ط: المكتب الاسلامي – مؤسسة الإشراق، ط الثانية سنة =

صلى الله عليه وسلم بلفظ الشك، فهذا على سبيل التواضع حرصاً من حضرته على نفي الشك عن إبراهيم، وهذا ما أكده أيضا الخطابي، حيث قال "مذهب هذا الحديث التواضع والهضم من النفس وليس في قوله: نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيم، اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم عليه السلام، لكن ففيه نفيُ الشك عن كل واحد منهما يقول: إذا لم أشكُّ أنا ولم أُرتب في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشكَّ فيه وأن لا يرتاب "[1]، ولا يبقى بعد هذا إلا أن نردد مع ابن حزم أن الحديث " حجة لنا على نفي الشك عن إبراهيم "[2]، لا في إثباته!

وأمثال هذا الكلام للعلماء الأكفاء الأثبات يدحض ظن الواهمين، فبينما يظن الواهمون أن هذا موقف شكي من إبراهيم عليه السلام، يوقن العلماء أن طلب إبراهيم إنما هو للترقي في درجات المعرفة بناءً على طلبه الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين، يقول الإمام النووي "وأما سؤال إبراهيم صلى الله عليه وسلم فذكر العلماء في سببه أوجهاً أظهرها أنه أراد الطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة بعد العلم بها استدلالا فإن علم الاستدلال قد تتطرق إليه الشكوك في الجملة بخلاف علم المعاينة فإنه

=

١٤١٩هـ/١٩٩٩م، صـ١٥٩،١٦٠

١- أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري): أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) تحقيق: د/محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، طـ: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي) طـ الأولى سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، جـ٣، صـ١٥٤٥،١٥٤٦

٢- الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) طـ: مكتبة الخانجي، القاهرة – بدون تاريخ، جـ٤، صـ٦

ضروري"[١]، فإبراهيم عليه السلام أراد الانتقال من المعرفة الاستدلالية (الخبرية) إلى المعرفة بالمشاهدة، وهذا ترقي من طور معرفي إلى طور معرفي أعلى، يؤكد هذا ما قاله النووي متابعا حديثه "سأل – أي إبراهيم – زيادة يقين .. فسأل الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين فإن بين العلمين تفاوتا "[٢]، فبين العلم بالاستدلال والعلم بالمشاهدة تفاوتا معرفيا، ثم يستدل الإمام النووي على هذا التفاوت المعرفي بين علم اليقين وعين اليقين باستشهاد لأحد أقطاب الصوفية، هو الإمام التستري – رضي الله عنه – فيقول " سأل – أي إبراهيم – كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكنا "[٣]، فاليقين ليس على درجة واحدة في حد ذاته، بل يتأتى تفاوته تبعاً لوسيلة التحصيل المعرفية التي تَحَصَّلَ بها، كما أشار ابن قتيبة، حين قال " وَالْيَقِينُ جِنْسَانِ: أَحَدُهُمَا: يَقِينُ السَّمْعِ، وَالْآخَرُ يَقِينُ الْبَصَرِ، وَيَقِينُ الْبَصَرِ أَعْلَى الْيَقِينَيْنِ "[٤]، وبناءً على ما تقرر عند العلماء، فإن الدرجة الثالثة من درجات اليقين هي أعلى الدرجات نظراً لدخول الدرجتين السابقتين فيها، إضافة إلى الممارسة التي لم تتحقق إلا فيها.

يقابل اليقين، الجهل[٥] الذي يأتي في أدنى المستويات المعرفية، لأنه يعني افتقاد المعرفة تماما، أو عدم إدراكها على أي وجه من الوجوه، وإذا

١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الثانية سنة ١٣٩٢هـ ، جـ٢، صـ١٨٤

٢- المنهاج: النووي، جـ٢، صـ١٨٤، بتصرف بسيط.

٣- المنهاج: النووي، جـ٢، صـ١٨٤

٤- تأويل مختلف الحديث: ابن قتيبة، صـ١٦٠

٥- عَرَّجْنَا على كلمة اليقين لأنها من الألفاظ التي تقابل الشك من ناحية المعنى، أما كلمة الجهل، فإنها من الكلمات التي تتقارب أحيانا وتترادف أحيانا أخرى في المعنى =

كان البحث العلمي الصحيح يستبعد الجهل من دائرته، نظراً لأنه يمثل العلم في أبهى صوره والمعرفة في أسمى معانيها، فإن الشك – اللامذهبي – هو السم الذي يصعد عليه الباحث في بناء بحثه العلمي، ومن هنا كانت العلاقة وطيدة الصلة بين المعرفة والشك، إذ يُعتبر الشك درجة من درجات سلم المعرفة، وإن الشريعة الإسلامية لتكشف لنا عن وشائج القربى بين المعرفة والشك، وذلك من خلال الآيات التي تتحدث عن أبجديات البحث العلمي، فتبين لنا هذه الآيات أن البحث العلمي لا يبنى إلا على يقين، ومن هنا تستبعد الآيات كل الأخبار التي لا تؤدي إلى مثل هذا اليقين، كالظن والوهم والتخرص ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء:١٥٧]، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾

=

مع كلمة الشك، بيان هذا: أن الشك وإن كان يتردد بين نقيضين لكنه في النهاية لا يعطي مستوى معرفيا يقينيا (عدم التثبت والتيقين) فهو في هذه الحالة جهل بالحكم الصائب، وهو بهذا يتساوى مع الجهل من حيث إنه كذلك لا يعطي مستوى معرفيا أصلا (عدم العلم)، هذا من ناحية التقارب، أما من ناحية الترادف فإن الشك أحيانا يستعمل بمعنى الجهل أي عدم العلم، كما في قوله تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء:١٥٧] يقول الإمام البضاوي شارحاً ومفسراً لهذه الآية الكريمة "والشك كما يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكده بقوله: مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل" أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت – بدون تاريخ، جـ٢، صـ١٠٨

[الأنعام:١٤٨]، ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، فكل هذه الآيات الكريمة – وغيرها كثير – تتحدث عن أمرين، الأول: العلم، وله قواعده وآدابه وقوانيه الحاكمة، الثاني: الظن والوهم وغيرها من الأوقال التي لا تستند إلى بينة أو دليل، فبينت الشريعة الغراء من خلال هذه الآيات أن العلم لا يبنى على مثل هذه الأخبار التي تفتقد إلى أدلة صدقها وثبوتها، ولهذا قلنا أن الشك نوع من التثبت ومحاولة للوقوف على صحة الخبر أو التجربة، أو الوصول إلى يقينية الخبر والتجربة، ومن ثم فإننا نجد القرآن الكريم يدعم هذا النوع من الشك، وليس أدل على هذا من الآية التي حكت لنا موقف إبراهيم عليه السلام حين التمس الشك الذي يعني – كما مر – الانتقال من مبدأ يقيني إلى مبدأ أعلى منه، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٠]، ونؤكد على ما ذكرنا سابقا من أن القول بأن إبراهيم عليه السلام شك مطلقا بما توحي به عمومية الإطلاق، فهذا غير مقبول.

وفيما يتعلق أيضا بعلاقة المعرفة بالشك، فقد كان الشك في بداية أطواره يمثل طريقا من طرق المعرفة أو مدخلا من مداخلها أو بابا من أبوابها، حيث كان الشك يُعنى بالتحقق من صدق المعرفة، أو التردد بين نقيضين حرصا على صدق المعرفة ويقينيتها، فقد كان الباحث يثير عدة تساؤلات أو افتراضات حتى يصل من ورائها إلى صدق المعرفة، وقد عُرف هذا الطور من الشك في المرحلة اليونانية، يقول د. عبدالرحمن بدوي " كلمة شكاك في اليونانية تطلق على من ينظر بإمعان، من يفحص باهتمام، قبل أن يصدر حكماً على شيء أو قبل أن يتخذ أي قرار "[١]، ثم انتقل الشك إلى

١– موسوعة الفلسفة: د/عبدالرحمن بدوي، ط: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – =

طور آخر فابتعد عن المعرفة شوطا بعد أن كان مقتربا منها يمثل مدخلا لها، ففي هذا الطور الاثني من أطوار الشك انقلب الشك على المعرفة حتى صار يعني إنكاراً لها، وأصبح الشك في هذا الطور يفيد عدم إمكان المعرفة، وصار الشك في هذه المرحلة يمثل شعارا لبعض المفكرين وأرباب المذاهب من الذين يقولون بعدم إمكان المعرفة، يقول د. زقزوق " ومفهوم الشك لم يعد يعني أن الشاك هو أحد الباحثين الذين يتخذون اتجاها نقديا غير مثقل بأحكام سابقة، وإنما أصبح يعني – على خلاف ذلك – أن الشاك هو أحد المفكرين الذين ينكرون إمكان المعرفة سواء كان هذا الإنكار إنكاراً جزئياً أو كلياً شاملاً لكل معرفة "[1]، ونستطيع أن نعطي تقييماً نفسياً – إن صح التعبير – للشك في كلا مرحلتيه، فإنه في مرحلته الأولى – مرحلة البحث عن الحقيقة – كان الشك صحيا وهاماً وإيجابياً، إذ إنه يسهم في بناء المستوى المعرفي بل يعد لبنة من لبناته، أما الشك في مرحلته الثانية – مرحلة إنكار المعرفة – فإنه يشكل خطراً على بناء الصرح المعرفي، كما أنه يعد مرضاً من الأمراض العقلية التي تصيب عقل الإنسان بالوهم والتردد والحيرة والريبة والقلق، الأمر الذي لا يساعد الإنسان في الوصول إلى حقيقة علمية، يقول أحد الباحثين " الشك الذي ينتاب الشخص السوي الصحيح نفسيا يكون مستندا إلى وقائع محددة وإلى أسباب وجيهة، ولكن الشك الذي لا يستند إلى وقائع موضوعية والذي يتخذ صفة العمومية، فإنه يكون إذاً

=

بيروت، ط الأولى سنة ١٩٨٤م، جـ٢، صـ١٦

١- الفلسفة ومشكلة الشك: د/محمود حمدي زقزوق، بحث منشور في: مجلة الدراسات الفلسفية والاجتماعية، طرابلس – ليبيا، العدد الأول سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، صـ١٢٥

شكا سيكلوجياً انفعاليا بل ويعتبر شكا سيكلوجياً مرضيا، وليس شكا سيكلوجيا من النوع السوي "[١]

وأحب أن أضيف هنا أن الشك حتى يكون صحيا أيضا من الناحية النفسية والعقلية، يجب أن يبقى في دائرة التفكير، أي في الأمور التي يتعلق بها التفكير البشري، أما الأمور التي تتعلق بالمعتقدات التي جرى الاتفاق والإجماع على صحتها فيجب أن يكون الشك بمنأى عنها، إذ لو تعلق الشك بأمور الاعتقاد، فسيخرج عن معناه الأصيل من كونه محاولة للبناء الفكري والمعرفي، ويكون أقرب إلى الإنكار والإلحاد، يقول د. توفيق الطويل " فإذا انصب الشك على معتقدات يتفق الناس على التسليم بها، قيل إن هذا إنكار أو عدم اعتقاد disbelief وهو يتضمن الإلحاد في الدين atheism"[٢]

ومما يعزز العلاقة بين الشك والمعرفة، أن الشك يسهم إسهاماً إيجابيا في بناء عملية التفكير[٣] لدى الإنسان، إذ الشك في جوهره يعني المقابلة بين أكثر من أمر، فالأمور التي هي محل النظر، تتيح للإنسان أن يختار بينها، وأن يوازن بينها، وأن يجري عملية تقييم واسعة شاملة لهذه الاختيارات المتعددة، فيخضعها للاختبارات وفرض الفروض حتى يتخير منها الأنسب والأقوم، وهذا كله عملية فكرية واسعة يجريها لإنسان، ونلاحظ فيها نشاطا ذهنيا موسعا، أما لو وُضِع الإنسان أمام اختيار واحد فهذا من شأنه ألا يجعل الإنسان يمارس تلك النشاطات العقلية والذهنية المشار إليها، لأن

١- سيكلوجية الشك: يوسف ميخائيل أسعد، ط: مكتبة غريب – القاهرة، ط سنة ١٩٨٣م، صـ٢٤

٢- أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، صـ٢٢٩

٣- عرفه الجرجاني بقوله " الفكر: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول" التعريفات: الجرجاني، صـ١٦٨، وعرفه صاحب المعجم الفلسفي بقوله " الفكر إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها " المعجم الفلسفي: د/جميل صليبا، جـ٢، صـ١٥٤

وجود الاختيارات شرط أساسي في عملية التفكير، يقول أحد الباحثين " التفكير هو جهد ذهني يبذله المرء من أجل الوقوف على الوسيلة الناجعة الشافية في الموقف .. من بين اختيارات متعددة كثيرة ومتباينة، فإذا لم يكن أمامك سوى وسيلة واحدة بإزاء الموقف الواحد، وقد فُرِضت عليك أو فرضتها أنت على نفسك أو آمنت بأنها الوسيلة الوحيدة الممكنة بغير إجالة الفكر بين الوسائل الأخرى المتباينة المتوافرة بالموقفن فإنك لا تكون إذاً مفكرا من قريب أو من بعيد "[1]، والشك يرتبط ارتباطا وثيقا بالتفكير إذ هو شكل من أشكاله ومظهر من مظاهره، لهذا يقول د.يوسف ميخائيل " والواقع أن وجود اختيارات متعددة في الموقف الواحد يجعل كل واحد من تلك الاختيارات موضع شك من جانب المرء "[2]، فالشك إنما يعني إعمال الفكر لأنه درب من دروبه، كما يعني شحذ العقل لأنه تدريب لملكاته، أما مسألة الاختيار الواحد، فيجعل الإنسان أشبه بالألة التي تنقاد ليس لها اختيار، وبالتالي فليس ثمة شك، ومن ثم فليس ثمة تفكير.

إذاً الشك جوهر أصيل تتبني عليه المعرفة، ذلك لأن الفكر لما كان ترتيب أمور معلومة حتى نستطيع التوصل من خلالها إلى أمر مجهول، فإن هذه العملية المعرفية لابد وأن تكون أحد خطواتها الهامة هي الشك، لأن الإنسان إذا لم يشك فالنتيجة الحتمية لهذا أنه عالم بكلي شيء، وهذا العلم الشمولي ليس من خصائص الإنسان، بل خاصية للرحمن – جل وعلا – فالله – تعالى – هو العالم بكل شيء علما شموليا محيطا لم يُسبق هذا العلم بخفاء أو جهل، ومن ثم فإن مرحلة الشك منتفية في جناب العلم الإلهي، أما دخولها في العلم الإنساني والمعرفة البشرية فدخولاً أصيلاً، لأنها

١– سيكلوجية الشك: يوسف ميخائيل أسعد، صـ٢٧

٢– سيكلوجية الشك: يوسف ميخائيل أسعد، صـ٢٧

صارت من مكونات هذا العلم ولازمة من لوازمه التي لا تنفك عنه، حيث صار الشك من ماهيات العلم الإنساني، ومما يبتعد عنه العلم الإلهي.

فالشك نزعة أصيلة لدى الإنسان في شتى الأماكن ومختلف الأزمان، يعبر عن هذا أحد الباحثين فيقول " الشك نزعة إنسانية لا مفر منها "[١]، وهو – أي الشك – يمثل مرحلة مهمة من مراحل التفكير الإنساني، ليتخلص الإنسان مما ران على تفكيره من الظنون والأوهام والتقليد، ليخلص إلى المعرفة الصادقة اليقينية، فهو في هذه الحالة فقط منهج من مناهج التفكير، يقول د. الطويل " فإذا اصطنع الباحث الشك منهجا للتفكير فافترضه بإرادته ليخلص عقله من معلوماته توطئة للتفكير فيها بنفسه دون أن يتأثر في بحثه بمعلوماته السابقة كان الشك هنا منهجا للتفكير "[٢]

*****

١- المذهب الشكي في الفكر الفلسفي ودوره في تحصيل اليقين عرض وتحليل: مصطفى سليم السيد عطية، بحث منشور في: مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، العدد: الحادي عشر، سنة ٢٠٢١م، صـ٧١٩

٢- أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، صـ٢٢٩

المبحث الثاني

أقسام الشك بين المتكلمين والفلاسفة

الشك له صور عديدة ولا يأتي في صورة واحدة، ومن هنا انقسم الشك إلى قسمين:

أولهما: الشك المنهجي.

ثانيهما: الشك المذهبي.

ولعل القارئ الكريم يكون قد أدرك من خلال المبحث السابق أي النوعين أقرب إلى البناء المعرفي من الآخر.

الشك المنهجي

فالنوع الأول وهو الشك المنهجي يساعد أو يسهم في بناء المستوى المعرفي لدى الإنسان، لأن الإنسان من خلاله يقوم بعمليات عقلية كالنقد والتحليل والتركيب، ويقوم بإسقاط هذه العمليات العقلية على المعارف المكتسبة من مصادرها المختلفة، يتغيا من خلال ذلك الوصول إلى اليقين، وهذا بالطبع يسهم في البناء المعرفي لدى الإنسان، جاء في الموسوعة الفلسفية " أما الشك كمنهج وموقف مؤقت فيدعو أصحابه إلى أن المعرفة الموضوعية ممكنة، وأن المعرفة بالمعنى الدقيق هي اليقينية الثابتة التي لا تختلف من شخص لآخر، وأن في العقل قدرة على الوصول إلى اليقين، لكنهم وجدوا أن السبيل إلى هذا اليقين هو بذر الشك في كل ما اكتسبناه في الماضي واصطناع الحذر والحرص في قبول ما اتفق عليه الفلاسفة السابقون، ومحاولة تدريب العقل على تكوين ملكة النقد والتحليل ومناقشة ما سماه السابقون مبادئ أولية، حتى نصل إلى مبادئ أولية وقضايا نراها واضحة متميزة، نقيم عليها من جديد قضايا يقينية أخرى "[1]

١- الموسوعة الفلسفية العربية: جـ١، صـ٥٢٤

فالإنسان يمارس هذا النوع من الشك بهدف تصحيح معلوماته حتى يصل من خلال معلوات صحيحة إلى نتائج صادقة، إذ لو كانت المعلومات خاطئة لأدت به إلى نتائج خاطئة، مما يعني أن الشك المنهجي خطوة لازمة في سبيل الحصول على نتائج يقينية، يقول الدكتور توفيق الطويل " الشك المنهجي خير طريقة لاتقاء هذه الأخطاء، إنه خطوة تُسلم إلى اليقين أو تؤدي إلى المعرفة الصادقة، فهو وسيلة وليس غاية في ذاته، يزاوله الباحث بإرادته ومحض رغبته، ومن ثم يسيطر عليه ويستطيع التحرر من شره، إنه نتيجة عزم من الباحث على أن يشك بنظام وبمقتضى مبدأ في أي فكرة يمكن أن تكون مثارا للشك "[١]، ويؤكد الدكتور الطويل على أن هذا النوع يمثل منهجية علمية لاختبار المعارف والمعلومات بهدف تطهيرها وتنقيتها مما علق بها من شوائب الفكر كالظن والوهم، والتي ابتعدت بها عن إطار اليقينية، فيقول " الشك المنهجي هو منهج يفرضه صاحبه بإرادته رغبة منه في امتحان معلوماته واختبار معرفته وتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات وأضاليل "[٢]، كما أنه يؤكد على أهمية الشك المنهجي من ناحية، ومن ناحية أخرى يشير إلى كيفيته، أي الأسلوب الذي يسير عليه الباحث في استخدام الشك المنهجي، فيقول " وهو يُمَكِن صاحبه من البدء بدراسة موضوعه وكأنه لا يعلم عنه شيئا، فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة أو المغالطات التي يتلقاها عن غيره من الناس أو يقرأها في كتب الباحثين، والإنسان بطبيعته عرضة للأحكام المبتسرة، وهذا الشك المنهجي خير طريقة لاتقاء هذه الأخطاء "[٣]

١- أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، صـ٢٣٩

٢- أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، صـ٢٣٩

٣- أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، صـ٢٣٩

بدايات الشك المنهجي وأطواره الزمانية

إذا كان الشك المنهجي – كما سبق – يسهم مساهمة واضحة في بناء المستوى المعرفي، ويعد أمراً لازماً فيما يتعلق بالوصول إلى نتائج يقينية، فهذا يسلمنا إلى القول بأن الشك المنهجي قديم وليس شيئا مستحدثا، التزمه العلماء والمفكرون في كل عصر ومصر، ولعل أبرز ظهور لهذا المنهج كان عند فلاسفة اليونان[1]

يأتي على رأس هؤلاء الفلاسفة، سقراط الذي مارس هذا النوع من الشك ضد السوفسطائيين[2] الذين اتخذوا من الشك المذهبي معول هدم للحقائق والمسلمات، فجابههم سقراط بنوع آخر من الشك يؤدي إلى البناء المعرفي والوصول إلى اليقين، أما عن المنهج الذي استخدمه سقراط أولا لمجابهة المشككين من السوفسطائية، وثانيا لتدعيم منهج الشك المنهجي، فقد ابتكر سقراط ما يعرف بمنهج التهكم والتوليد، فقد كان يصطنع الجهل

١- أبرز ظهوره وليس أول ظهوره، فثمة فارق بين اللفظتين، وعلة ذلك: أنه ما من شك أن هذا التيار الشكي كان له وجود قبل مرحلة الفلسفة اليونانية، بيد أن وصوله إلينا كان متعذرا، أو وصل لكنه كان في صورة شذرات من هنا وهناك، أما في مرحلة الفلسفة اليونانية، فقد ساهم التأريخ والتدوين في هذه المرحلة في التعرف على هذا التيار، أو بمعنى أدق انتظام التأريخ والتدوين جعلنا أمام نسق فلسفي كامل متميز بادي القسمات واضح الملامح.

٢- يطلق لفظ السوفسطائية على فرقة ينكرون الحسّيّات والبديهيات وغيرها، قالوا الضروريات بعضها حسّيّات، والحسّ يغلط كثيرا كالأحول يرى الواحد اثنين والصفراوي يجد الحلو مرّا والسوداوي يجد المرّ حلوا، والشخص البعيد عن شيء يراه صغيرا، والراكب على السفينة يرى الساحل متحركا، والماشي يرى القمر ذاهبا، وهكذا كثير. فلا جزم بأنّ أيهم يعرف حقّا وأيهم باطلا. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: التهانوي، جـ١، صـ٩٥٧، وانظر: المعجم الفلسفي: د/جميل صليبا، جـ١، صـ٦٥٨ وما بعدها، وانظر: الموسوعة الفلسفية العربية: جـ١، صـ٤٧٩ وما بعدها

بإثـارة الأسـئلة الدالـة عليـه فـي سـبيل اسـتخراج الحقـائق مـن نفـوس السوفسطائيين، ولعل هذا ما تشير إليه الألفاظ المُكونة لهذا المنهج (التهكم – التوليد) فالتهكم يدل على طريقة لتخليص العقول مما خالطها من ضلال، أما التوليد فإنه يشير إلى إفساح المجال للحقائق، يحدثنا أ. يوسف كرم عن هذا المنهج فيقول " انتهج سقراط منهجا جديدا في البحث والفلسفة، أما البحث فكان له مرحلتان (التكم والتوليد) ففي الأولى كان يتصنع الجهل ويتظاهر بتسليم أقوال محدثيه، ثم يلقي الأسئلة ويعرض الشكوك شأن من يطلب العلم والاستفادة بحيث ينتقل من أقوالهم إلى أقوال لازمة منها، ولكنهم لا يسلمونها، فيوقعهم في التناقض، ويحملهم على الإقرار بالجهل، وهذا ما يسمى بالتهكم السقراطي أي السؤال مع تصنع الجهل، وغرضه منه تخليص العقول من العلم السوفسطائي الزائف، وإعدادها لقبول الحق، وينتقل إلى المرحلة الثانية فيساعد محدثيه بالأسئلة والاعتراضات مرتبة ترتيبا منطقيا على الوصول إلى الحقيقة التي أقروا أنهم يجهلونها فيصلون إليها وهم لا يشعرون ويحسبون أنهم استكشفوها بأنفسهم، وهذا هو التوليد، أي استخراج الحق من النفس "[١]، ومما يدل عليه النص السابق، أن منهج سقراط كان له جانبان، أولهما سلبي، تمثل في سلب الأخطاء من العقول وتطهيرها مما علق بها من معارف ومعلومات خاطئة، ثانيهما إيجابي، تمثل في توليد المعارف والمعلومات الصحيحة حتى تتشبع بها النفوس وتقنع بها العقول.

كذلك كان من الفلاسفة الذين اعتمدوا الشك المنهجي منهجا لهم للتعرف على الحقائق والوصول إليها، أرسطو، وقد كان كذلك من الفلاسفة الذين ساروا على نهج سقراط، يقول د. مبارك حسين " وجاء أرسطو بعد سقراط وكشف عن منهاجه في البحث وسماه الشك المنهجي في كتابه ما

١– تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠١٤م، صـ٦٩

بعد الطبيعة أو الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة، وفرق بينه وبين الشك المذهبي، فأهمل الشك المذهبي، وأيد الشك المنهجي، وأوصى بالعمل به عند البحث عن الحقيقة العلمية، حيث وجد أرسطو علاقة ضرورية تقوم بين الشك في المنهج أي الوسائل المؤدية إلى الحقيقة وبين المعرفة الصحيحة "[1]، فالربط بين الشك والمعرفة كان أمرا ضروريا عند أرسطو، ومن ثم فاكتساب المعرفة لا يكون إلا بعد الشك، بيد أن الشك الذي يعنيه أرسطو هو الفحص العلمي لكل بحث، يقول أحد الباحثين " استخدم أرسطو الشك استخداما منهجيا، والمعنى الذي أخذه الشك عنده هو الفحص العلمي والفلسفي، حيث ربط بين الشك المنهجي والمعرفة الصحيحة، فالشك عنده ضروري في بداية كل بحث، لأن أية معرفة لا تكون صحيحة إلا بعد الشك فيها وتمحيصها بصورة دقيقة "[2]، كذلك كان من أنجع المناهج التي وضعها أرسطو لمجابهة الشكاك، المنطق الأرسطي، فهذا العلم يعتبر منهجا قويما في مواجهة المشككين، فضلا عن تقويمه لطرائق الفكر ومناهج الاستنباط، الأمر الذي يصحح سبل الوصول إلى المعارف والحقائق، ومن ثم كان المنطق الأرسطي من أهم وأبرز المناهج لبلوغ اليقين، يقول أحد الباحثين " ويمكن اعتبار أن المنطق الأرسطي بمثابة المنهج الذي أسس له لبلوغ اليقين المعرفي، فأرسطو أيقن بوجود حقائق معرفية كما عمد على وضع المنهج الموصل لها "[3]

١- الشك المذهبي والشك المنهجي: د/مبارك حسن حسين إسماعيل، بحث منشور في: حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد: الثالث، سنة ١٩٨٣م، صـ٣١

٢- من الشك الفلسفي إلى النسبية العلمية دراسة كرونولوجية: د/شادي هواري، بحث منشور في: مجلة الراصد العلمي، العدد: الخامس، سنة ٢٠١٨م، صـ٤٨

٣- ثنائية الشك واليقين في المنهج الفلسفي: بحث منشور ضمن أعمال الندوة الفلسفية الثامنة والعشرون للجمعية الفلسفية المصرية – الإسكندرية، ديسمبر سنة ٢٠١٧م، =

وفي العصر الوسيط نجد ظهورا لهذا النوع من الشك واستخداما له على يد أبرز فلاسفة العصر الوسيط وهو القديس أوغسطين[١]، الذي اتخذ من الشك منهجا للوصول إلى الحقيقة، وقد كان في هذا قريبا من دريكارت الذي اتخذ من فكره دليلا على وجوده، واعتبر أنه طالما يفكر فهو دليل على وجوده، أما أوغطسين فقد اتخذ من طلبه لليقين دليلا على وجوده، أما طلب اليقين في حد ذاته فسبيله الشك فقال " إذا كان يشك – أي الإنسان – فهو يحيا، وهو يذكر موضوع شكه، وهو يعلم أنه يشك، وهو يطلب اليقين "[٢]، بل اعتبر أوغسطين أن الشك حقيقة يقينية، ووجه اليقين فيها اتفاق الجميع عليها، فليس ثمة طائفة إلا وهي تنتهج الشك، وبذا يصبح الشك أول خطوة على طريق اليقين لأنه يُسْلم إلى كثير من الحقائق التي ترتبط بالشك وتقترن به اقتران العلة بمعلولها، يحدثنا عن وجهة النظر هذه لـ أوغسطين، د. عبدالرجمن بدوي، فيقول " بدأ أوغسطين الشك فقال: إن الناس مختلفون

=

صـ١٨

١- أوغسطينوس، القديس Saint Augustin (تاغست ٣٥٤م/هيبون ٤٣٠م) هو أوريليوس أوغسطينوس، أشهر آباء الكنيسة اللاتينية، والده باتريسيوس كان وثنيا، أما أمه فكانت مسيحية، خطب في تاغاست وقرطاجة بناء على طلب من سيماك، تعمَّد على يد أمبروسيوس، ترك إيطاليا عام ٣٨٨ ثم استقر في هيبون حيث سيم كاهنا ٣٩١م ثم أسقفا ٣٩٦م ومات في مدينته الأسقفية، من مؤلفاته: الاعترافات – في النفس الخالدة – الدين الحق – في الموسيقى. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب: تقديم: الرئيس شارل حلو، إعداد: الأستاذ روني إيلي ألفا، مراجعة: د/جورج نخل، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، جـ١، صـ١٥٥

٢- تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط: يوسف كرم، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠١٤م، صـ٣٣

في الحياة، والتذكر، والعلم، والإرادة، والحكم – أهي تنتسب إلى الهواء أم إلى النار أم إلى الدم؟ ولكن هؤلاء جميعا متفقون على أنهم يشكون، فهناك إذاً حقيقة يقينية هي الشك، وهذه الحقيقة تقتضي أيضا حقائق أخرى مرتبطة بها: وهي الحياة، والتذكر، والعلم، والحكم، والإرادة "[1]

بيد أن أوغطسين استبعد بعض الحقائق التي هي بمثابة المسلمات لا يمكن أن يتطرق إليها الشك بحال من الأحوال، وضرب مثالا لذلك بالقوانين المنطقية، والحقائق الرياضية، وكذا الحقائق الفلسفية والخلقية – على حد تعبيره – يقول " إن هناك حقائق مستقلة عن كل ظرف، مطلقة من كل قيد لا يتطرق إليها الشك مهما تعسف فيه متعسف، منها القوانين المنطقية، مثل قولنا: القضية الصادقة ليست كاذبة، وإن القضية المناقضة لها هي الكاذبة، ومنها الحقائق الرياضية، مثل: ٣×٣=٩، وغيرها كثير معروف، ومنها الحقائق الفلسفية والخلقية "[2]

أما في العصر الحديث فنجد أن أبرز الفلاسفة الذين اعتمدوا الشك المنهجي طريقا موصلا لليقين، الفيلسوف ديكارت[3]، الذي كان أحد المُنَظِرين لهذا النوع من الشك، فقد اعتبره مقياسا للحقائق، فكل فرضية أو نظرية تطرق إليها شك فهذا يكفي لعدم بلوغها مرتبة الحقائق القائمة

١- فلسفة العصور الوسطى: د/عبدالرحمن بدوي، ط: وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم – بيروت – لبنان، ط الثالثة سنة ١٩٧٩م، صـ٢٢،٢٣

٢- تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط: يوسف كرم، صـ٣٢

٣- رني ديكارت (١٥٩٦/١٦٥٠م) ولد بلاهي من أعمال مقاطعة تورين بفرنسا، ولما بلغ الثامنة أدخل مدرسة (لافليش) للآباء اليسوعيين، وكانت من أشهر المدارس في أوربا، فمكث بها ثماني سنين حتى أتم برنامج الدراسة فيها، وكانت الفلسفة تحتل في هذا البرنامج مكاناً فسيحا. تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، ط: دار المعارف – القاهرة، ط سنة ١٩٤٩م، صـ٥٦.

على اليقينية والتسليم، يقول " يلزم إذا أردت أن أقيم شيئا متينا في العلوم أن أبدأ كل شيء من جديد، وأن أوجه النظر إلى الأسس التي يقوم عليها البناء، ولن يتحتم على لذلك أن أثبت بطلان آرائي القديمة، بل يكفي لإطراحها أن أجد في كل رأي منها سببا ما للشك فيه "[١]، بهذا يجعل ديكارت الشك بمثابة القاعدة التي يتأسس عليها اليقين، بل نراه يؤكد على أهمية الشك المنهجي كوسيلة لازمة للحصول على حقائق تتسم بالوضوح والظهور، فيقول " الشك وسيلة للحصول على معرفة الحقيقة معرفة أكثر وضوحا "[٢]

ويؤكد ديكارت أن الغرض الأساسي من المنهجية الشكية التي ارتضاها أساساً لبحثه، الوصول إلى اليقين، وليس الشك المجرد عن هدف الخالي عن الغاية، لهذا يقول " وما كنت في ذلك مقلدا الريبيين الذين لا يشكون إلا للشك، ويتظاهرون دائما بالتردد، لأن غرضي كله كان على عكس ذلك، لا يرمي إلا إلى الظفر باليقين، وإلى الإعراض عن الأرض المتحركة والرمل في سبيل العثور على الصخر الصلصال "[٣]، ويؤكد على هذا الغرض عند ديكارت أحد الباحثين، فتحت فصل بعنوان: دواعي الشك،

١- التأملات في الفلسفة الأولى: رينيه ديكارت، ترجمة وتقديم وتعليق: عثمان أمين، تصدير: مصطفى لبيب، ط: المركز القومي للترجمة – القاهرة، ط سنة ٢٠٠٩م، صـ٦٥

٢- نقلا عن: المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، د/محمود حمدي زقزوق، ط: دار المعارف – القاهرة، ط: الرابعة سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، صـ٧٦

٣- انظر: مقال عن المنهج: رينيه ديكارت، ترجمة: محمود محمد الخضري، مراجعة وتقديم: د/محمد مصطفى حلمي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ط الثالثة سنة ١٩٨٥م، صـ١٢٣،١٢٤، وانظر أيضا: من الشك الفلسفي إلى النسبية العلمية دراسة كرونولوجية: د/شادي هواري، صـ٥٤،٥٥

يحدثنا عن داعي الشك عند ديكارت فيقول " شك ديكارت ليس كشك مونتني أو البيرونيين أو السفسطائيين، بل مجرد سلاح يدرأ به مقدما عن اليقين الذي يصبو إليه بكل فكره حتى يبقى ذلك اليقين بمنجاة من سهام الشك نفسه "[١]

وبهدف الوصول إلى اليقين، وحتى يكون شك ديكارت شكا هادفاً بَناءً، فقد وضع كل شيء تحت مجهر الشك، على حد قوله " يلزم أن نضع مرة موضع الشك جميع الأشياء بقدر ما في الإمكان "[٢]، فشك في الحواس، وامتد شكه إلى عالم الأفكار، حتى أنه افترض أن شيطانا ماكرا يعبث بكل الروابط العقلية الصرفة بين المعاني والأفكار[٣]، وتطاول في شكه حتى طال بعض الحقائق التي من الممكن أن يتسرب إليها الوهم والغلط، وفي هذا يقول " وبوسعنا أن نشك أيضا في جميع الأشياء التي بدت لنا من قبل يقينية جدا، بل نشك في براهين الرياضة وفي مبادئها وإن تكن في ذاتها جلية جلاءً كافيا، لأن من الناس من أخطأوا وهم يفكرون في مثل هذه الأمور "[٤]، كل هذا ليوقن ديكارت أن ما يصل إليه بعد هذه الاختبارات الشكية سيكون موضع قبول وصدق دائما، ومن ثم فقد أرسى ديكارت ما يشبه أن يكون قاعدة تسهم في الوصول إلى الحقائق، صاغها في قوله " ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ما لم أعرف يقينا أنه كذلك، بمعنى أن

١- الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت: د/نظمي لوقا، ط: المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة، ط سنة ١٩٧٢م، صـ٧٣

٢- التأملات في الفلسفة الأولى: رينيه ديكارت، صـ٦٥

٣- انظر: الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت: د/نظمي لوقا، صـ٧٩

٤- مبادئ الفلسفة: ديكارت، ترجمة وتقديم وتعليق: د/عثمان أمين، ط: دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة، ط سنة ١٩٧٥م، صـ٥٥، وانظر أيضا: التأملات: ديكارت: صـ٦٥ وما بعدها

أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك"[١]

أما عن المتكلمين فأبرزهم في خوض تجربة الشك المنهجي، الإمام الغزالي، الذي بدأ حياته الفكرية بقلق عقلي واضطراب فكري حول التماس الحقيقة وفي أي مذهب تكون وفي أي نسق فكري تكون حاضرة، وقد اختار الغزالي أن يضع كل المذاهب وكل الأنساق الفكرية فوق مائدة البحث الشكي، إذ أصبحت عنده القناعة الكافية أن اكتشاف الحقيقة التي يبحث عنها، سبيلها الاختبار الشكي، يقول الغزالي " ولم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشررين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل "[٢]

وعن ماهية الشك الذي سلك الغزالي طريقه، فقد ارتأى أن فحواه وجوهره يكمن في النظر والتفكير والتأمل، وهذه الأمور وحدها التي هي جوهر الشك ستصل حتما بالإنسان إلى الحقيقة، ومن هنا اشتهر عن الإمام الغزالي عبارته التي تنبئ عن منهجه هذا، والتي يقول فيها " الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال "[٣]، فهذه العبارة للإمام الغزالي تفيد

١- مقال عن المنهج: رينيه ديكارت، صـ١٤٣، ١٩٠، ١٩١

٢- المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٢

٣- ميزان العمل: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) تحقيق وتقديم: د/ سليمان دنيا، طـ: دار المعارف – مصر، طـ الأولى سنة ١٩٦٤م، =

إرشاده إلى وظيفة هذا النوع من الشك المنهجي، وأن مهمته الرئيسة إنما هي الإيصال إلى الحقيقة، إذ إنه يفتح باب النظر والفكر، ومن ثم فإنه يقود إلى المعرفة، ومن يهمله فسيظل على حالة من الجهل أسيراً للضلال، لأن في غيابه غياب للحقائق، ومن رام كشف الحقائق فعليه أن يجتاز رحلة تبدأ بالشك الذي بواسطته يتم التمييز بين الخطأ والصواب والحق والباطل، والغزالي بهذا يقودنا إلى منهجية تعتمد تأسيس المعرفة على أسس يقينية بواسطة الشك المنهجي.

ومن بين المتكلمين الذين اعتمدوا الشك المنهجي كوسيلة للوصول إلى معرفة يقينية، الجاحظ، وهو من أساطين الفكر الكلامي الاعتزالي، بل يعد الجاحظ من المؤسسين لنشر وتأصيل هذا المنهج الشكي، حيث يرى أن المعرفة اليقينية لا يستطيع الإنسان أن يتوصل إليها إلا من خلال الشك، إذ الشك في المعطيات العلمية والمعرفية المبدئية المتوفرة لدى الإنسان هو ما يَنتُج عنه معطيات معرفية وعلمية يقينية، يقول الجاحظ " اعرف مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشّكّ في المشكوك فيه تعلّما، فلو لم يكن في ذلك إلّا تعرّف التوقّف ثمّ التثبّت، لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه "[1]

قيمته

أما عن قيمة هذا النوع من الشك فيما يتعلق بمساهمته في بناء المستوى المعرفي، فهو ذو قيمة جليلة، إذ هو بمثابة تمحيص الحقيقة

=

صـ٤٠٩

١- الحيوان: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) طـ: دار الكتب العلمية – بيروت، طـ الثانية سنة ١٤٢٤هـ ، جـ٦، صـ٣٣٥

للوصول إليها خالية من كل ما اعتراها مما يشينها من نقص، وعن كل ما يلحق بها من شوائب الزيادة، يحدثنا د. مبارك حسين، عن قيمة الشك المنهجي، فيقول " الشك المنهجي يعتبر مرحلة تطهير وتنظيف وتنقية وتخلية الوسائل (الحس أو العقل) من كل زيف وباطل، حتى تتخذ طريقها إلى الوصول للحقيقة "[١]، أما عن ضرورة عملية التطهير والتنقية المتمثلة في الشك المنهجي، وأهميتها بالنسبة للإنسان فيما يتعلق بمراحل تفكيره وما يصبو إليه من الوصول إلى نتائج التفكير السليم الصادق، يقول " الإنسان في تفكيره لابد له من عملية التطهير حتى يأمن سبل السلامة ويصل إلى شطآن الأمان، كما أنه يؤدي إلى تحرير العقل من براثن الشبهات التي تعوق سبيله "[٢]

مجالاته

أما عن مجالات هذا الشك، فإن ميدانه الرحب، ومجاله الفسيح، إنما هو في المبادئ النظرية، وكذا العلوم التجريبية، التي لا يقطع فيها برأي معين ولا بوجهة نظر ثابتة، وتكون دلالات الآراء فيها ظنية لا قطعية، ومن ثم فإن مثل هذه الآراء بهذا النوع من الدلالات تحتمل الكثير من النظريات التي تتوارد على محلٍ فكري ونظري معين، وكل هذه الآراء ووجهات النظر تتغيا الوصول إلى الحقيقة التي يبحثها هذا المحل الفكري النظري، أما فيما يتعلق بالمبادئ الفطرية والضرورية، أو البدهيات، وكذا الأصول العقلية، أو الأصول الشرعية الثابتة المقررة، فهذا مما لا مجال ولا مدخل فيه للشك المنهجي، وخير شاهد على ما نقول، تلك التجربة التي مر بها الإمام الغزالي وكذا ديكارت، أما الإمام الغزالي فإنه لما حاول أن يخضع تلك المبادئ الضرورية والفطرية والبدهية للمنهج الشكي، والتي من المفترض

١- الشك المذهبي والشك المنهجي: د/مبارك حسن حسين إسماعيل، صـ٢٧

٢- الشك المذهبي والشك المنهجي: د/مبارك حسن حسين إسماعيل، صـ٢٧

أنها خارج الإطار الشكي ولا تخضع له بحال من الأحوال، تَمَلَّكتهُ الحيرة والاضطراب، وشابه نوع من الخلل الفكري الذي أسلمه إلى حال من السفسطة، وقد عاد هذا كله بالتأثير السلبي على صحته البدنية، فلازم الفراش مدة شهرين يعوده الناس نظراً لما أَلَمَّ به، يصف الغزالي حاله هذا بقوله " فأعضل هذا الداء، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم المنطق والمقال "[1]، ولما عاد الغزالي إلى الوثوق بالمبادئ الضرورية والفطرية والبدهية، ونحَّاها عن مجال الشك، عاد إلى طبيعته وأذهب الله عنه ما كان قد أَلَمَّ به، يقول " حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين "[2]

وأما ديكارت فرغم أنه يكاد يكون وضع كل شيء تحت مجهر الشك حتى بعض الحقائق والمبادئ، إلا أنه لما كان شكه في الأساس شكاً منهجيا وليس مذهبيا مطلقا، فنراه قد استثنى من مجال الشك المنهجي ما يتعلق بالعقائد الدينية والقواعد الأخلاقية وكذا التقاليد الاجتماعية، فكل هذا مستثنى من أن يكون محلاً أو موضعا للشك، يقول د. عثمان أمين " شك ديكارت كان شكا منهجيا، وليس مطلقا – ويدلل على هذا بأن ديكارت – استثني بالفعل – أي من مجال الشك – العقائد الدينية والقواعد الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية .. أي شك العقل لا شك العقيدة، ولم يعد هذا الشك أن يكون سوى محاولة منظمة للوصول إلى اليقين العقلي، وليس تجربة من تجارب الوجود، ومثل ذلك الشك أن يكون نشاطا روحيا مرتبا، وقوة دافعة للفكر،

١– المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٧

٢– المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٧

من أن يكون ميلا إلى الانحدار في هوة الشك المطلق والتحلل من ربقة الدين "[١]

قواعده

لما كان الشك المنهجي طريقا موصلا للحقائق، فقد عُنِيَ به المفكرون ووضعوا له من الضوابط ما يجعله يسير في طريق قويم حتى يصل إلى حقائق صادقة يقينية، فهو ليس مجرد شك يسير وفق الهوى، أو يُحابي النزعات المتعددة، بل هو شك منضبط له من الأُطُر والضوابط ما يجعله من أقوم الطرق الموصلة للحقائق، وقد عُنِيَ العلماء بوضع هذه الضوابط والقواعد التي تجعل من الشك المنهجي وسيلة معتمدة وموثوقة في تحري الحقائق، وقد تمثلت هذه الضوابط أو القواعد في: التحرر من القيود – قاعدة البداهة واليقين – قاعدة عدم التسرع في اتخاذ الأحكام – قاعدة عدم التناقض – قاعدة الثقة الكاملة في الحكم وتيقنه[٢]

خصائصه

نستطيع أن نستخلص مما مر بيانه بخصوص الشك المنهجي، أن عدة خصائص ثابتة تميزه عما عداه من شكوك أخرى، وهذه الخصائص كالتالي:

أولا: أنه وسيلة لا غاية، فالباحث يستخدمه وسيلة للصول إلى هدف معين، وليس الشك غاية في ذاته، ومن ثم وُسِمَ بـ المنهجي، فهو منهج أي طريقة في التفكير للوصول إلى اليقين.

١- ديكارت: د/عثمان أمين، ط: مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط السادسة سنة ١٩٦٩م، صـ١٢١،١٢٢، بتصرف بسيط، وانظر هذا المعنى أيضا في: المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت: د/زقزوق، صـ٧٦

٢- انظر: – المذهب الشكي في الفكر الفلسفي: مصطفى سليم السيد عطية، صـ٧٤٠

ثانيا: أنه غير دائم، فبما أنه وسيلة لغرض معين، فالبتالي فإنه ينتهي بمجرد الوصول إلى هذا الغرض

ثالثا: أن وظيفته الرئيسة الوصول إلى اليقين، ومن ثم فقد اشتهر القول: أن صاحبه يبدأ شاكاً وينتهي إلى اليقين.

الشك المذهبي (المطلق)

النوع الثاني من أنواع الشك هو الشك المذهبي أو الشك المطلق، وهو شك هادم لصرح المعرفة، لأنه لا يعترف بفرضية قيام أي حقيقة فضلا عن أي معرفة ممكنة، ولا يخفى ما في هذا النوع من هدم للمعارف والقيم والمبادئ، وقضاء على العقول لما يترتب عليه من توقف حركة الفكر، وهو بهذا ضرب من الجهل.

أقسامه

هذا النوع ينقسم إلى عدة أقسام باعتبارين اثنين، الاعتبار الأول: الإنكار الكلي للمعرفة، الاعتبار الثاني: الإنكار الجزئي للمعرفة، وفي هذا يقول د. زقزوق " الشك هو أحد المفكرين الذين ينكرون إمكان المعرفة سواء كان هذا الإنكار إنكاراً جزئياً أو كلياً شاملال لكل معرفة "[1]، أما الأقسام فهي:

الأول: الشك في إمكان المعرفة، وهذا النوع ينكر كل صورة من صور المعرفة، والمراد بالمعرفة هنا المعرفة بصورة عامة، وبمعناها الواسع، يحدثنا د. زقزوق عن هذا نوعية هذا الشك فيقول " هذا الشك ينكر كل صورة من صور المعرفة، ويؤخذ مفهوم المعرفة هنا بصورة عامة تماما، دون مراعاة لنوع العلم أو المعرفة "[2]، وقد وُجِدَت طوائف استخدمت هذا النوع من الشك، يأتي على رأسها طائفة اللأدرية، وهي الطائفة التي عرفت بالمتوقفة،

١- الفلسفة ومشكلة الشك: د/محمود حمدي زقزوق، صـ١٢٥

٢- الفلسفة ومشكلة الشك: د/محمود حمدي زقزوق، صـ١٣٤

والتوقف هنا إنكار لإمكان المعرفة، ومن ثم فالشاك هنا " يمتنع عن إثبات الحقائق أو نفيها "[١]

الثاني: الشك في الحقيقة ذاتها، وهو " الشك الذي لا ينكر إمكان معرفة الحقيقة فقط، وإنما ينكر الحقيقة ذاتها "[٢]، وقد عرف التاريخ بعض الفرق التي اعتنقت هذا النوع من الشك، وذهبت من خلاله إلى القول باستحالة المعرفة، إذ إنها لا تسلم بوجود الحقائق، يقول د. توفيق الطويل " للشك عند الكثيرين من مؤرخي الفلسفة معنى أعم وأشمل، لأنه يتضمن القول باستحالة المعرفة والقطع بإنكارها في جزم لا يشوبه تردد، كالشك السوفسطائي .. والبيرونيين وأتباعهم من فلاسفة الإسكندرية "[٣]

وهذه الفرق نحت منحا غريبا وعجيبا فيما يتعلق بالمعرفة، فقد أنكرت استحالة قيام المعرفة، لأنهم ارتأوا أن مصادر اكتساب المعرفة سواء كانت حسية أم عقلية أو تجريبية لا يمكن الوثوق فيها بحال من الأحوال، وأساءت الظن بهذه المصادر كأدوات للمعرفة، ومن ثم أنكرت قيام الحقائق، وثمة ما تجدر إليه الإشارة في هذا المقام وهو: أن من ينكرون استحالة قيام الحقائق، قد شككوا في مصادرها من الحس والعقل وغير ذلك، وكذا فعل من ينكرون إمكان المعرفة، فقد ذهب بعضهم إلى التشكيك في مصادر المعرفة من الحس والعقل، بيد إنهم وإن التقوا في هذه الجزئية، إلا أن النتيجة عندهم ليست واحدة، فثمة فارق بين التشكيك في إمكان المعرفة، وبين القول باستحالة قيام الحقائق .

١- أسس الفلسفة: د/الطويل، صـ٢٣١

٢- الفلسفة ومشكلة الشك: د/محمود حمدي زقزوق، صـ١٣٤

٣- أسس الفلسفة: د/الطويل، صـ٢٣٢،٢٣٣ بتصرف بسيط

الثالث: الشك الجزئي، وهذا النوع من الشك هو أخف الأنواع، إذ إنه لا يتضمن إنكاراً لإمكان المعرفة، كما أنه لا يقول باستحالة قيام المعرفة وعدم وجود الحقائق، بل هو موقف نسبي بين هذا وذاك، فهو يقول بإثبات بعض صور الحقائق أو جزء من أجزائها، ثم ينكر ما يقابل هذه الصور أو هذه الأجزاء، أما عن هذه الصور التي تحتضن هذا النوع من الشك فقد جمعها د. زقزوق في صورتين، الأولى: الشك التجريبي، وهذه إما أن تكون شكا في الأسس، أو شكا في التنبؤات، أو شكا في الاستقراء، الثانية: الشك الأخلاقي[1]

وفي مدرسة الفلسفة الحديثة هنالك بعض الفلاسفة الذين تبنوا الشك في إمكان المعرفة، يأتي على رأس هؤلاء، ديفيد هيوم[2]، الذي اعتبر أن المعرفة غير ممكنة، ذلك لأن الوسائل التي يعتمد عليها الإنسان في تحصيل المعرفة ليست إلا وهما وخداعا، بيد أن هذه الوسائل التي يقصده هيوم ليست الوسائل الحسية، إنما يعني بها العقل، فإذا كانت وسائل الحس تختلف في تحصيل المعرفة تبعا لطبيعة إدراكاتها، فالعين تُحَصِل المعرفة عن طريق إدراك المبصرات، والأذن تُحَصِل المعرفة عن طريق إدراك المسموعات، فإن العقل يعتمد على بعض العلميات العقلية التي يُحَصِل المعرفة من خلالها، وإن أهم هذه العميلات، إدراك العلاقة بين العلة والمعلول، والسبب والمسبب، هنا يحكم هيوم على هذه العلميات العقلية

١- انظر: تمهيد للفلسفة: د/محمود حمدي زقزوق، ط: دار المعارف – القاهرة، ط الخامسة سنة ١٩٩٤م، صـ١٢٤

٢- ديفيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦م) شغف بالفلسفة منذ صباه حتى ضحى في سبيلها بدراسة القانون التي أرادته أسرته عليها، ثم ضحى بالتجارة، كان يطمح إلى أن يقيم مذهباً يضارع العلوم الطبيعية دقة وإحكاما بفضل تطبيق منهج الاستدلال التجريبي . انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، صـ١٦٣.

بأنها إدراكات غير يقينية بل هي من قَبِيل الوهم والخداع، ومن ثم فإن المعطيات المعرفية الناشئة من وراء هذه الإدراكات لا يمكن الوثوق بها في بناء المعرفة[١]

وفيما يتعلق بالقسم الثاني من أقسام الشك وهو الشك في الحقيقة ذاتها، فالوصول إلى الحقيقة أو وجود الحقيقة في نظر من انتصر لهذا النوع من الشك أمر محال، لذا كان ركنه الركين وعماده الذي يقوم عليه: القول بنسبية الحقائق، وأنه ليس ثمة اعتبارات نتحاكم إليها في معرفة الحقيقة، بل الإنسان هو مقياس الحقيقة، وتعتبر مقولات بروتاغوراس[٢]، مهدت ورسخت لهذا النوع من الشك، كقوله " إن الإنسان يستطيع أن يقول شيئين متعارضين بالنسبة إلى الشيء الواحد – وكقوله – إن الإنسان هو مقياس كل الموجودات بالنسبة إلى وجودها وغير الموجودات بالنسبة إلى عدم وجودها "[٣]، وفحوى هذه البعارات ودلائلها تشير إلى اعتماد الإنسان مقياسا لكل شيء ومعيارا للحقائق، ومن ثم فهذه الحقائق أهم ما تتصف به

١- انظر: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم: د/إبراهيم مصطفى إبراهيم، ط: دار الوفاء – الإسكندرية، ط سنة ٢٠٠٠م، صـ٣٢٦، تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، صـ١٦٤، أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، صـ٢٣٦

٢- بروتاغوراس (٤٨٥ق.م/٤١١ق.م) سفسطائي يوناني قطن في أثينا مدة طويلة من الزمن، نشر كتابا في أثينا عن عمر يناهز السبعين فاتهم بفساد الأخلاق مما دفعه إلى الهرب بعد أن أحرق كتابه في الساحات العامة، مات من جراء هبوب عاصفة بحرية هوجاء أودت به وهو في طريقه إلى سيسيليا، من مؤلفاته: ملف في الوجود (بفي منه شذرات) – مؤلف في الآلهة – مؤلف في الصراع. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب: جـ١، صـ٢٢٨

٣- أطلس الفلسفة: بيتر كونزمان وآخرون، ترجمة: د/جورج كتورة، ط: المكتبة الشرقية – لبنان، ط الحادية عشر سنة ٢٠٠٣م، صـ٣٥

في هذا الفكر، النسبية، فكل شيء قابل للتغير والتبدل وليس هناك ثبات لقيمة ما أو مبدأ ما، فمعيار الوجود ليس موضوعيا بل هو ذاتي في المقام الأول، فليس ثمة مرجع نتحاكم إليه، فكل شيء حقيقته على ما تبدو لكل إنسان، ولا شك أن كل إنسان يختلف عن الآخر في شعوره وتفكيره وأحكامه، لذا سنكون أمام تضارب في الأحكام والحقائق، ولا يخفى ما في هذا الاتجاه من تجاهل للقيم وإنكار للمبادئ وهدم لصرح المعرفة

بداياته

هذا النوع من الشك يضرب بجذوره الزمانية في أعماق الماضي السحيق، فهو ليس حديث النشأة، وبالرغم من بعدنا عن الحضارة اليونانية من ناحية الزمان، إلا أن وجود الشك المذهبي كان أبعد من هذه الحضارة نفسها، وهذا ما صرح به بروتاغوراس لسقراط في المحاورة التي حملت اسمه إذ قال " وبعد إن فن السوفسطائي وجد كما أعتقد منذ العصور القديمة "[١]

خطورته

تأتي خطورة هذا الشك ليس فقط من إنكاره للحقائق، بل أيضا لولوجه إلى ساحة الألوهية، والتشكيك في حقيقة وجود الحق – تعالى – فنجد بروتاغوراس يقول " أما الآلهة فلا أستطيع أن أجزم بوجودهم أو عدم وجودهم، ولا أن أتصور أشكالهم، وهناك من العوائق الكثيرة ما يحول دون الوصول إلى المعرفة الصحيحة، منها غموض الموضوع وقصر حياة الإنسان "[٢]

١- أفلاطون: المحاورات الكاملة، نقلها إلى العربية: شوقي داود تمراز، ط: الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت، ط سنة ١٩٩٤م، المجلد الثالث، محاورة بروتاغوراس، صـ٥٠

٢- قصة الفلسفة اليونانية: زكي نجيب محمود، أحمد أمين، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠١٨م، صـ٦٨

خصائصه

إذا كانت هنالك خصائص للشك المنهجي، فكذا الحال بالنسبة للشك المذهبي، وتتمثل أهم هذه الخصائص فيما يلي:

أولا: أنه دائم فليس موقوتا بزمان معين، ذلك لأنه انتقل من مجال الوسائل إلى مجال الغايات.

ثانيا: نظراً لأنه دائم، فهو مذهبي، أي أن الشاك يتخذه مذهباً له، وبالتالي فهو حاضر عنده دائما فيما يتعلق بالممارسات التطبيقية.

ثالثا: إذا كان هذا الشك يسعى لنكران الحقائق، لذا كان شكاً هداماً .

رابعا: ضار، وهذه نتيجة حتمية لنكران الحقائق، فهو شك يضر بالفرد ومن ثم بالمجتمع، ففيه تعطيل لملكة الفكر والتحليل والابتكار، وإزدراءُ للمعارف، وهدمُ لصروحها، وفيه تعطيلُ للقيم والمبادئ والأخلاق لما يترتب عليه من القول بنسبيتها، ولا شك أن هذا كله يؤدي في نهاية المطاف إلى انهيار المجتمعات .

الممارسات

هذا القسم من الشك (المذهبي) مارسته عدة طوائف، يأتي على رأسها، السوفسطائية[١]، وهذه الطائفة كانت قد استغلت الظروف السائدة في تلك الفترة لتعميم مذهب الشك، واستخدامه في قلب الحقائق، وكانوا قد أوتوا مهارة في الخطابة والجدال، فزاد نفوذهم وقوي شأنهم، يحدثنا عنهم وعن منهجم الشيخ نديم الجسر فيقول " السوفسطائية هي طريقة الجماعة الذين برعوا في تعليم الناس قلب الحقائق بالجدل الكاذب .. وليس لهم مذهب فلسفي معلوم، ولا آراء تربطها روح الفلسفة التي تبحث عن الحق .. فمهروا في تعليم الناس فنون البيان، والخطابة، والجدل، وتزويق الكلام، وكانوا يفخرون بأنهم يستطيعون أن يؤيدوا الرأي ونقيضه، وتمادوا في غوايتهم،

١- سبق التعريف بهذا اللفظ.

حتى كادت طريقتهم تؤدي إلى هدم أسس العقل والمعرفة، وتمزيق الأخلاق "[1]، وقد تبع هؤلاء السوفسطائيين بعض الطوائف الذين تشربوا هذا المذهب الشكي وانتسبوا إليهم، فكان منهم العندية وهم " قائلون بأنّ حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات"[2] والعنادية وهم "وهم الذين يعاندون ويدّعون أنهم جازمون بأن لا موجود أصلا فهم ينكرون ثبوت الحقائق "[3]، ولاشك أن النزعية الشكية لدى كل هذه الطوائف من المكن أن تفسر على أنها نوع من الخواء الفكري والفراغ العقلي، وهي أيضا مكابرة في إنكار ما لايمكن إنكاره مما اتفق عليه العقلاء.

كذلك كان من هؤلاء الفلاسفة الذين اعتنقوا الشك المذهبي ودعموه بالآراء والأفكار، بيرون، ويعد هذا الفيلسوف أيقونة على هذا النوع من الشك، إذ إنه شكك في الحقائق عن طريق التشكيك في مصدرها، ولعل أبرز هذه المصادر مصدري العقل والحس، يقول " يجب أن لا نثق في الحس ولا في العقل وأن نبقى من غير رأي دون الميل إلى هذا أو ذاك، وأيا كان الأمر يجب أن نثبت وأن نفي معا أو لا نثبت ولا ننفي "[4]، ولاريب أن إنكار الحقائق متوقف على التشكيك في مصادرها، وهذا ما فعله بيرون، وربما يكون أمثال هؤلاء الشكاك قد جنحوا إلى هذا المذهب الشكي ظنا منهم بأنهم سيجدون فيه ما ينشدونه من سعادة! ولا أدري أي سعادة ينشدها الإنسان وهو ينكر الحقيقة؟ وهل كانت السعادة في نظرهم حقيقة أم ماذا؟!

١- قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن: الشيخ/نديم الجسر، ط: المكتب الإسلامي – بيروت، ط الثالثة سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، صـ٣٦،٣٧ بتصرف بسيط.

٢- كشاف اصطلاحات العلوم والفنون: التهانوي، جـ١، صـ٩٥٨

٣- كشاف اصطلاحات العلوم والفنون: التهانوي، جـ١، صـ٩٥٨

٤- مع الفيلسوف: د/محمد ثابت الفندي، ط: دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ط سنة ١٩٨٧م، صـ١٤٤

مناقشتهم وجدالهم

وفيما يتعلق بمناقشة أصحاب هذا المذهب الشكي أو جدالهم، فكثير من العلماء ارتأى أن لا فائدة ترجى من وراء التوقف معهم في مناقشة، ولا ثمرة تبتغى من محالوة جدالهم، ذلك لأنهم لا يختلفون مع غيرهم في الوسائل أو المنهجية الموصلة للحقائق، إنما هم ينكرون الحقائق من أساسها بل ويشككون في وجودها، ومن ثم فمسألة جدالهم ومناقشتهم لا طائل من ورائها، يقول الإيجي " والمناظرة معهم أي مع السوفسطائية قد منعها المحققون من العلماء لأنها لإفادة المجهول المحتاج إلى النظر بالعلوم ولا يتصور في الضروريات كونها مجهولة أي محتاجة إلى النظر، والخصم لا يعترف بمعلوم حتى يثبت به مجهول، فالاشتغال به أي بجواب ما ذكروه من الشبه التزام لمذهبهم ومحصل لغرضهم "[١]، في هذا النص نرى الإيجي يحذر من مناظرتهم وجدالهم لا لشيء اللهم إلا لكونهم ينكرون الحقائق فليس ثمة سبب للمناظرة والجدال بعد نكران الحقائق.

هذا الموقف ليس للإيجي وحده بل يشاركه فيه علماء كُثر، وهو موقف لا يدل على عجز أو ضعف أو هروب، بل إنه جاء إمعانا منهم في عدم ذكر هؤلاء السوفسطائيين، لأنهم لو جادلوهم أو ناظروهم أو ناقشوهم بأي وجه من الوجوه لكان هذا تخليدا لهم ولذكرهم، ولما كان هذا الأمر لا يستحقونه نظراً لعظم جرمهم (إنكار الحقائق) غض العلماء طرفهم عن مناقشتهم حتى لايكون لهم أثر أو ذكر ولو من باب المناظرة مع علماء المسلمين، ومع ذلك فإن هذا الموقف لم يكن مانعا لدى بعض العلماء أن يقدموا نماذج في غاية الدقة لمن ألجأته الأحوال للتعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المشككين، فنجد الإيجي يقدم أنموذجا للمناظرة يجب أن تُلتزم في

١- كتاب المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د/عبد الرحمن عميرة، ط: دار الجيل – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٩٧م، جـ١، صـ١١٤

مناظرة أمثال هؤلاء، هذا النموذج يعد من أفضل النماذج لإفحامهم وإلزامهم ببطلان مذهبهم في نكران الحقائق، يقول " بل الطريق معهم في إلزامهم ودفع إنكارهم أن تعد عليهم أموراً لا بد لهم من الإعتراف بثبوتها والجزم فيها حتى يظهر عنادهم في إنكار الأشياء كلها مثل: أنك هل تميز بين الألم واللذة، أو بين دخول النار والماء، أو بين مذهبك وما يناقضه فإن أبوا إلا الإصرار على الإنكار، أوجعوا ضرباً وأصلوا ناراً، أو يعترفوا أي إلى أن يعترفوا بالألم وهو من الحسيات وبالفرق بينه وبين اللذة وهو من البديهيات "[1]

كان أيضا من بين العلماء الذين قدموا نموذجا رائعا في مناظرة المشككين، ابن حزم، حيث استهل حديثه بتعجبه ممن ينكر الحقائق، وأن هذا الإنكار هو في حقيقته إنكار للعقل، وكأنه يريد أن يقول أنهم قوم بلا عقول، يقول "والقول بنفي الحقائق مكابرة للعقل والحس، ويكفي من الرد عليهم أن يقال لهم: قولكم أنه لا حقيقة للأشياء حق هو أم باطل؟ فإن قالوا هو حق، أثبتوا حقيقة ما، وإن قالوا ليس هو حقا، أقروا ببطلان قولهم وكفوا خصمهم أمرهم"[2]، ويقدم ابن حزم نموذجا آخر فوق ما قدمه، وهو أيضا ملزم للمشككين مبينا عوارهم، فاضحا جهلهم، فيقول "ويقال للشكاك منهم: أشككم موجود صحيح منكم أم غير صحيح ولا موجود؟ فإن قالوا هو موجود صحيح منا، أثبتوا أيضا حقيقة ما، وإن قالوا غير موجود، نفوا الشك وأبطلوه وفي إبطال الشك إثبات الحقائق "[3]

١- المواقف: الإيجي، جـ١، صـ١١٥

٢- الفصل: ابن حزم، جـ١، صـ١٤

٣- الفصل: ابن حزم، جـ١، صـ١٤

العلاقة بين الشكين (المنهجي – المذهبي)

إذا كان الشك المنهجي يقف في مقابلة الشك المذهبي موقف التناقض والتضاد، بيد أن ثمة تشابه بينهما، تأتي هذه المشابهة من نقطة انطلاق كل منهما، فالشك المنهجي ينطلق من التشكيك في المعطيات المعرفية ويقف من مصادرها سواء أكانت الحسية أم العقلية موقف النقد والتمحيص، وكذلك الأمر في الشك المذهبي، فإنه ينطلق كذلك من التشكيك في المعطيات المعرفية لمصدري الحس والعقل، أما نقطة الخلاف بينهما فتتمثل في أن الشك المنهجي يقدم نقده وتمحيصه للمصادر المعرفية بهدف الوصول إلى الحقيقة بطريقة يقينية، وهنا يكون الشك المنهجي وسيلة لا غاية، أما على الجانب الآخر فإن الشك المذهبي لا يتجاوز منطقة النقد والتمحيص بل يظل أسيراً لها وما ذاك إلا لأنه جعل من نقده لمصادر المعرفة غاية لا وسيلة، وفي حالة ما إذا قلنا أن الشك هنا وسيلة فإنه يكون وسيلة لإنكار الحقيقة وليس للوصول إليها، فالشك المنهجي ينطلق من أرض الشك ليحط رحاله في أرض اليقين، أما الشك المذهبي فإنه ينطلق من أرض الشك ليحط رحاله في أرض الشك، فهو ينطلق منها ليعود إليها مرة أخرى.

هذه النقطة تسلمنا إلى جزئية أخرى نتبين من خلالها علاقة أخرى بين كلا الشكين، ألا وهي: أن الشك المنهجي يؤمن بوجود الحقيقة لكنه لا يسلم بها أولاً، ولا يجعل من هذه الحقيقة عقيدة يعتقدها ثم يبحث عن أسباب صدقها، فشكه ليس من قبيل الاستدلال على الحقيقة، إذ لو كان من قبيل الاستدلال لكانت هذه الحقيقة مسلمة لديه بوجه من الوجوه، بيد أن الحقيقة ليست من قبيل الاعتقاد والتسليم عند صاحب الشك المنهجي، بل إنه يقدم شكه ليصل من خلاله إلى الحقيقة، فهو مقتنع بأن هناك حقيقة، لكنه لا يعتقد في حقيقة معينة ثم يقدم شكه كاستدلال عليها، إنما يقدم شكه سبيلاً للوصول لها، ومن هنا كان بيان هذا الفارق الخفي أمراً مطلوبا ومهما

للتفرقة بين الإيمان بوجود حقيقة، وبين اعتقاد حقيقة بعينها، لهذا كان الإيمان بوجود الحقيقة من أكبر الأسباب المعينة على الوصول لها، وبفقده تُفقد الحقيقة، وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا حين قال " المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان"[١]، فالإيمان بوجود الحقيقة أكبر دافع وأهم حافز للبحث عنها والوصول إليها.

أما الشك المذهبي فإن الحقيقة عنده ليست لها وجود خارجي فضلا عن إدراكها عقليا، فهو لايؤمن بالحقيقة ولا يعتقدها ولا يسلم بها، ومن هنا كانت صعوبة الوصول إلى الحقيقة لأنه افتقد الإيمان بها، ومن ثم كان الشك عنده – كما سلف – وسيلة وغاية أيضا، إيغالاً في نكران الحقيقة.

*****

١– إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) ط: دار المعرفة، بيروت – بدون تاريخ، جـ٣، صـ٧٥

المبحث الثالث

استعمالات الشك عند المتكلمين والفلاسفة

مدخل

أشرنا في الجزئية الخاصة بحدود الدراسة أن المراد من المتكلمين في الإطار البحثي لهذه الدراسة العلماء الذين مارسوا علم الكلام بصرف النظر عن انتماءاتهم المذهبية والفرقية، وكذا المراد من الفلاسفة، العلماء الذين مارسوا البحث العقلي الفلسفي وصاروا أعلاما في الدراسات الفلسفية. انتهى.

بناءً على ما سبق فإن هذا المبحث يعد بمثابة بيان الجانب التطبيقي لاستعمالات منهج الشك في الممارسات الكلامية والفلسفية لكلٍ من علماء الكلام والفلاسفة.

عندما نطالع الجانب التطبيقي للمارسات التطبيقية فيما يتعلق بمنهج الشك لاسيما عند علماء الكلام فلا غرو أن نجد استعمالات هذا المنهج الشكي بكثرة عند علماء المذهب الاعتزالي، و لا عجب في هذا لمن فطن بمبادئ هذا المذهب، إذ إنهم تبنوا الجانب العقلي وعولوا على نزعتهم العقلية كثيرا في بحوثهم الكلامية، واعتمدوا النظر العقلي منهجا من مناهج الاستدلال، وهو منهج مقدم عندهم، وينقل لنا الإمام الأشعري قيمة العقل عندهم من خلال ما ساقه منسوباً إلى أبي الهذيل العلاف " ووصفوا العقل فقالوا: منه علم الاضطرار الذي يفرق الإنسان به بين نفسه وبين الحمار وبين السماء وبين الأرض وما أشبه ذلك ومنه القوة على اكتساب العلم، وزعموا أن العقل الحس نسميه عقلاً بمعنى أنه معقول، وهذا قول أبي الهذيل "[١]، وربما كان دافعهم إلى اختيار هذا المنهج ظروف النشأة التي

١- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ) عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، ط: دار فرانز شتايز، بمدينة =

أحاطت بميلاد الفرقة، وما كان من وراء هذا من اطلاعهم على الفلسفة اليونانية وتعمقهم فيها، يقول زهدي جار الله " وقد بدأ الاعتزال محدود التفكير ضيق الآفاق، ولكن سرعان ما تعمق المعتزلة في بحث تلك الأصول – أي أصولهم الخمسة – وتوسعوا في شرحها، مستعينين على ذلك بالفلسفة اليونانية التي بدؤوا يدرسونها والتي أمدتهم بأفكار جديدة كثيرة ومواد للبحث والنظر غزيرة "[1]، الأمر الذي جعل أحد الباحثين يقول " يظهر الاعتزال إذن دعوة سافرة إلى الاعتماد على العقل أو النظر العقلي "[2]

وبالرغم من هذه النزعة العقلية التي عرف بها المعتزلة في الأوساط العلمية لا سيما في جانبها الكلامي ووالفلسفي، إلا أن الحق يقتضي منا أن نقول: أن المعتزلة كان لهم دور هام في الدفاع عن العقيدة الإسلامية في فترة من الفترات التي احتاج فيها الدين أن يدافع عنه بالمنطق العقلي لا بالمنطق النصي وحده، وربما يكون هذا ما دفعهم أن يستزيدوا من الاطلاع على التراث اليواني لا سيما الفلسفي منه والمنطقي، لكنهم لم يتوقفوا عند حد الإفادة فقط بل غالوا في استخدام المنهج العقلي حتى كادت هذه النزعة تفتنهم عن الأصول التي وضعها صاحب المذهب حين قال " الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق، وخبر مجتمع عليه، وحجة عقل، وإجماع "[3]، فمؤسس المذهب، واصل بن عطاء، لم يهمل النقل كتابا وسنة،

=

فيسبادن (ألمانيا) ط الثالثة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، صـ٤٨٠

١- المعتزلة: زهدي جار الله، ط: الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت، ط سنة ١٩٧٤م، صـ١١٣

٢- العقل عند المعتزلة: حسني زينة، ط: دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٧٨م، صـ٢١

٣- الأوائل: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران =

بل جعلهما مقدمين على العقل، بيد أن مغالاة الأتباع هي التي أعطت للعقل مساحة كبيرة في الاستدلال .

وفيما يتعلق بالجانب التطبيق للشك عند علماء الكلام، نطالع منهم الجاحظ المعتزلي الذي نبه على منهج الشك وأهميته في الاستدلال وأنه طريق موصل لليقين، يقول الجاحظ " اعرف مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشّكّ في المشكوك فيه تعلّما، فلو لم يكن في ذلك إلّا تعرّف التوقّف ثمّ التثبّت، لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه "[١]، يؤكد الجاحظ في هذا النص على أهمية الشك في كونه منهجا يصل بصاحبه إلى اليقين، وأن من لم يعرف الشك فلن يصل بحال إلى ما ينشده من يقين، بل إنه يوصي بتعلم هذا المنهج، ويقرر: أن الشك إذا لم نصل من خلاله إلى يقين ما فيكفينا أنه يجعلك لا تدلج إلى خطأ لتقرره، بل يكفيك منه حينذاك التوقف حتى تتثبت من النتيجة المقررة.

ولا يتوقف الجاحظ عند تقرير أهمية منهج الشك فحسب، بل نراه يأتي باستشهادات لأئمة هذا العلم تؤكد أهمية منهج الشك في كونه مدخل إلى اليقين، ومن هذه الاستشهادات "لمّا قال ابن الجهم للمكّيّ: أنا لا أكاد أشكّ! قال المكّيّ: وأنا لا أكاد أوقن! ففخر عليه المكيّ بالشكّ "[٢]، إنه في هذا

=

العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) ط:: دار البشير– طنطا، ط الأولى سنة ١٤٠٨هـ ، صـ٣٧٤

١– الحيوان: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية سنة ١٤٢٤هـ ، جـ٦، صـ٣٣٥

٢– الحيوان: الجاحظ، جـ٦، صـ٣٣٥

الاستشهاد يجعل الفخر للمكي في كونه شاكا، أما عدم الشك فليس مما يفتخر به، ثم يورد استشهاداً آخر فيقول "قال أبو إسحاق: نازعت من الملحدين الشاك والجاحد فوجدت الشّكّاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود "[1]، يبين هذا النص ما للشك عند الجاحظ[2] من أهمية كبرى، فهو يفرق به بين نوعين من الملحدين، الملحد الجاحد، الذي من الممكن أن يكون جحوده لا لعلة إنما استكباراً ونفوراً وإعراضاً عن الحق لهوى في نفسه، ثم الملحد الشاك، الذي يكون إلحاده لعدم اطلاعه على الأدلة التي ينتفي بها هذا الإلحاد، أو ربما لأنه لم يتبين له الحق لعلة تزول بزوال أسبابها، فهذا النوع من الملحدين (الشكاك) اعتبرهم أبوإسحاق أبصر بجوهر الكلام من أولئك الجاحدين، وبالتالي هم أقرب إلى الحق إذا زالت أسباب العلل عنهم .

وفي معرض تقرير الشك كمنهج يوصل إلى اليقين، نطالع أيضا رأيا لأبي إسحاق النَظَّام يفيد هذا، وقد نقله إلينا تلميذه الجاحظ، حين قال " وقال أبو إسحاق: ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حال شكّ "[3]، يفرق هنا النظام بين نوعي الشك، الشك المذهبي الهدام، الذي لا يصلح أن يكون منهجا لتقرير الحقائق، وبين الشك المنهجي الذي هو لبنة مهمة في بناء صرح الحقيقة العلمية ومن خلاله يستيطع الباحث أن يتوصل إلى اليقين، وفي هذا النص

١- الحيوان: الجاحظ، جـ٦، صـ٣٣٥

٢- إن كان الكلام ليس للجاحظ مباشرة إنما هو لشيخه وأستاذه أبوإسحاق إبراهيم بن سيار النَظَّام، إلا أن إيراده في معرض التقرير أكبر دليل على موافقته عليه بالإضافة إلى كونه شيخا للجاحظ، ومن هنا كان إسناد الكلام للجاحظ بطريق غير مباشر.

٣- الحيوان: الجاحظ، جـ٦، صـ٣٣٥

نلمح تأكيد النظام على هذا الأمر، ففي كلامه ما يُشعر أن اليقين لا يُتأتى إليه إلا من خلال الشك أولا، وبذا يصبح الشك أداة من أدوات ابتناء النتائج على أساسٍ من اليقين.

وإذا كان النظام ومن بعده تلميذه الجاحظ قد دعا كلا منهما إلى الشك كمنهج معرفي يتوصل من خلاله إلى يقينية الحقائق، بل وأوجباه على كل باحث عن المعرفة اليقينية، فإن هناك من علماء الكلام من ذهب إلى ما هو أبعد من هذا، حين اعتمد الشك المنهجي كأساس للعقائد، ووظف هذا الشك توظيفا عقديا، بحيث إنه جعل إقامة الإسلام إقامة يقينية داخل قلب الفرد بعد أن يمر بتجربة الشك، الذي ذهب إلى هذا من علماء الكلام هم الأشاعرة، وقد نسب هذا إليهم ابن حزم الظاهري، فقد قال في الفصل " وأما الأشعرية .. فقالوا .. لا يصح إسلام أحد حتى يكون بعد بلوغه شاكا غير مصدق "[١]، ومع أن ابن حزم ساق هذا الكلام منسوبا إلى الأشاعرة مُشنعاً عليهم فيه، إلا أننا حين وقفنا على مذهبه فيما يتعلق بمسألة التقليد، وجدناه لا يقول به بل يذم التقليد، ومن يستقصي كتابه في الأصول يجده قد عقد بابا فيه عنونه بـ إبطال التقليد، وساق فيه ما ارتآه من أدلة على بطلانه[٢]، ولعل أقرب الآراء إلى هذا الرأي رأي أبوهاشم من المعتزلة الذي ذهب إلى أن الواجبات على الملكلف الشك، حكى الإيجي مذهبه فقال " وقال أبو هاشم هو أي أول الواجبات الشك "[٣]، ومع أن أبي هاشم قد خالف أباه

١- الفصل: ابن حزم، جـ٤، صـ٣٣ بتصرف بسيط

٢- انظر هذا الباب وما ساقه فيه من أدلة على بطلان التقليد في: الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) تحقيق: الشيخ/ أحمد محمد شاكر، تقديم: د/إحسان عباس، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت – بدون تاريخ، جـ٦، صـ٥٩

٣- المواقف: الإيجي، جـ١، صـ١٦٧

أبوعلي الجبائي فيما يتعلق بأول الواجبات على الملكفن نظرا لأن أبي علي الجبائي ذهب إلى أن النظر هو أول الواجبات[1]، إلا أن القاضي عبدالجبار قد جمع بين كلا الرأيين، موضحا أن النظر وإن كان قد قال به أبوعلي الجبائي إلا أنه لا يصح إلا مع الشك، يقول " ومن حق النظر أن لا يصح إلا مع الشك في المدلول عند شيخينا "[2]، وكأني بالقاضي عبدالجبار يرجح مذهب الشك، ويرى منه ضرورة لبناء المعارف ومن ثم الحقائق عليه، لذا فقد ذهب إلى أن النظر عند أبي علي الجبائي إنما يقصد منه الشك أيضا، وإن كان قيده بالمدلول لا بالدليل.

والذي يقف على مذهب علماء الكلام لا سيما المعتزلة يجد أنهم يرجحون مذهب الشك كمنهج يُبنى عليه في الوصول إلى الحقائق، ولا يخفى أن غرضهم من ذلك، قناعتهم أن الشك في المعطيات المعرفية إنما هو اختبار لهذه المعطيات ينتج عنه التأكد إما من صدقها وإما من كذبها، وبالتالي فما يتوصل إليه الإنسان بعد هذه العلملية الشك لن يتطرق إليه شك بحال من الأحوال، ولا أعتقد أن هذه النظرة لمنهج الشك كانت وقفاً على المعتزلة وحدهم، بل يتساوى فيها كل من رجح الشك منهجا من مناهج الوصول إلى يقينية الحقائق، بيد أن المعتزلة كانت أكثر الفرق أخذا بهذه المنهجية، وليس أدل على هذا من قول أبي الهذيل العلاف لما قيل له "إنّك إذا راوغت واعتللت– وأنت تكلّم النظام وقمت– فأحسن حالاتك أن يشكّ

١– انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل: القاضي أبي الحسن عبدالجبار الأسد آبادي (المتوفى سنة ٤١٥هـ) النظر والمعارف، تحقيق: د/إبراهيم مدكور، إشراف: د/طه حسين، ط: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة – بدون تاريخ، جـ١٢، صـ١١، وانظر: الجبائيان أبوعلي وأبوهاشم: علي فهمي خشيم – بدون بيانات طباعة، صـ٣٣٣، وانظر: المواقف: الإيجي، جـ١، صـ١٦٦

٢– المغني: القاضي أبي الحسن عبدالجبار (النظر والمعارف)، جـ١٢، صـ١١

النّاس فيك وفيه! قال: خمسون شكّا خير من يقين واحد "[١]، فأبوالهذيل هنا يرى أن اليقين الذي سبقه شك خير من يقين لم يسبق بشك، وأن الإنسان يجب أن يضع معارفه واعتقاداته المسبقة الموروثة موضع الشك حتى يصل من خلال هذا الشك إلى يقينيتها، ولو ظلت على ما هي عليه دون اختبارها اختبارا شكيا، فإنها تبقى في دائرة الظن، والظن لا يغني عن الحق شيئا، يشرح لنا مذهب العلاف في قضية الشك، د. أحمد صبحي، فيقول " أول ما يجب على الإنسان من حيث هو مكلف، طرد الاعتقادات والظنون السابقة على التفكير والنظر، لأن الاعتقادات السابقة ليست إلا ظنا ولايغني الظن عن الحق شيئا، إنه يجب ألا يمنع الإنسان عن التوقف أو التثبت إزاء المعتقدات سهو أو وهم أو دعة أو سكون، كما ينبغي ألا يبقى المكلف مقلدا معتقدا أنه بعد النظر والشك سيصل إلى ما وصل إليه بدونه وعن طريق التقليد "[٢]، فالشك بمثابة الأمر الواجب على الإنسان، وقد استمد وجوبه من الغاية التي يتبناها هذا النوع من الشك ألا وهي الوصول إلى اليقين، وأريد بقولي: هذا النوع من الشك، التأكيد على أن الشك محل الحديث، هو الشك المنهجي البناء، وليس الشك المذهبي الهدام، ومن ثم فهو على هذا " ليس إثما ولا قبيحا، وإنما يقبح الشك لو ظل الإنسان على حالة من الشك، ولكنه يحسن في ابتداء حال الإنسان حتى يتسنى له أن يصل إلى العلم الذي عنده تسكن النفس "[٣] فهو – أي الشك المنهجي – ذو مهمة شريفة، ولعل هذا

١- الحيوان: الجاحظ، جـ٣، صـ٢٧

٢- في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (المعتزلة): د/ أحمد محمود صبحي، طـ: دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، طـ الخامسة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ١، صـ٢٠٣

٣- في علم الكلام: د/أحمد محمود صبحي، جـ١، صـ٢٠٤

يفسر لنا مقولة ابن قتيبة "الظنون مفاتيح اليقين "[1] فابن قتيبة رغم كونه ليس على مذهب الاعتزال إلا أنه أيضا يرى أن الشك مفتاح من مفاتيح اليقين.

من رحاب علم الكلام إلى رحاب الفلسفة ننتقل، حتى نرى كيف كان استعمالهم للشك في تقرير الحقائق العلمية، وفيلسوفنا الذي معنا هو أبوالوليد بن رشد، والقاصي والداني في مجال الدراسات الفلسفية يعلم سمو منزلته وعلو قدره، وابن رشد له استعمالات لمنهج الشك قد أفاد منها في تقرير الحقائق الذي يريد تقريرها، ونطالع له هنا في هذا المقان استعمال الشك في إثبات صفة العلم لله تعالى، والحق أقول: أن ابن رشد هنا لم يعمد إلى فرض الشك ثم الانطلاق منه إلى بيان الحقيقة، لكنه أفاد من شك الآخرين الذين أثاروه في معرض مسألة علم الله بالجزئيات، وقد كانت من المسائل المثارة بين المتكلمين والفلاسفة، وقد ذهب الفلاسفة فيها إلى أن الله يعلم الأشياء بعلم كلي، إذ لو كان يعلم الجزئيات لأدى هذا إلى التغير في علمه – تعالى – وابن رشد قد أفاد من الشك هنا، ليس فقط انتصارا لما تبناه هو في هذه المسألة من كونه يعلم الجزئيات دون أن يؤدي هذا إلى تغير في علمه تعالى، إنما أفاد منه في تقرير صفة العلم لله على نحو من الكمال الذي يجب أن يكون له تعالى " في كونه علما شاملا – عدم المماثلة بأي شكل بين العلم الإلهي والعلم الإنساني – للعقول إزاء العلم الإلهي حد تقف عنده "[2]، أما عن الشك المُثار فقد كان كالتالي " إذا كان علم الله متعلقا

١- عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط سنة ١٤١٨هـ ، جـ١، صـ٩١

٢- ابن رشد منهجه وعقيدته: د/بركات عبدالفتاح دويدار، ط: مجمع مطابع الأزهر الشريف – القاهرة، ط الأولى سنة ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، صـ١٧٥

بالجزئيات المتغيرة ألا يقتضي ذلك أن يكون العلم القديم متغيرا "[١]، لم يقف ابن رشد أمام هذا الشك راداً إياه نافياً له، إنما أفاد منه في بيان حقيقته العلمية التي ذكرناها آنفا من كون علمه تعالى شاملا – لا يماثل علم البشر – لا تبلغ حقيقته عقول الناس، ومن ثم فقد قرر ابن رشد هذا الشك حتى يصل منه إلى الحقيقة المتغياة، وعن تقريره لهذا الشك يقول " والشك يلزم هكذا: ..."[٢]، وأخذ ابن رشد يسرد مفردات هذا الشك فرضية فرضية[٣]، ولما فرغ من سرد مفرداته وفرضياته، شرع في حله، فقال تحت عنوان موسوم بـ حل الشك، وحل الشك يستدعي كلاما طويلا[٤]، ويأتي ابن رشد على كل إشكالات هذا الشك حتى يصل إلى الحقيقة التي يتغيا بيانها فيقول " وكما أنه لا يحدث في الفاعل تغير عند وجود مفعوله، أعني تغيرا لم يكن قبل ذلك، كذلك لا يحدث في العلم القديم، سبحانه، تغير عند حدوث معلومه عنه "[٥]، بتقرير هذا الشك استطاع ابن رشد أن يثبت ما رام إليه من إثبات صفة العلم لله تعالى على نحو من الكمال الذي يليق بذاته جل وعلا .

نعود مرة أخرى إلى المتكلمين ولعل من أبرز المتكلمين الذين استعملوا منهج الشك في التعرف على الحقائق والتأكد من صدقها والتثبت من يقينيتها، الإمام الغزالي، فقد عرف هذا المتكلم الفيلسوف بمدى وثوقه

١- ابن رشد منهجه وعقيدته: د/بركات عبدالفتاح دويدار، صـ١٧٥

٢- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: أبوالوليد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، طـ: دار المعارف – القاهرة، طـ الثالثة سنة ١٩٩٩م، صـ٧٢

٣- انظرها في: فصل المقال: ابن رشد، دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، صـ٧٢ من صـ٧٢ إلى ٧٤

٤- انظر: فصل المقال: ابن رشد، دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، صـ٧٤

٥- فصل المقال: ابن رشد، دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، صـ٧٥

في الشك المنهجي كطريق موصل إلى الحقائق، وصار علما في هذا في مجال الدرسات الكلامية والفلسفية، بل هناك من أدرك أن الشك بهذا المعنى عند أكبر فلاسفة أوربا وهو ديكارت كان فيه متأثرا إلى حد كبير بالغزالي، وبناءً عليه فإنه يمكن اعتبار الغزالي من كبار ممثلي الشك المنهجي في الفكر الإسلامي بصفة عامة وفي الفكر الكلامي والفلسفي بصفة خاصة، وهوأيضا أحد أقطابه الكبار، ذلك لأن الغزالي اعتبر الشك بابا من أبواب الحقيقة ومفتاحا من مفاتيحها، وقد صرح بهذا حين قال " الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال "[1]

ومما هو معروف في أوساط البحث العلمي، أن الغزالي لجأ إلى (الشك) كمنهج بحث عن الحقيقة التي كان ينشدها بعد تلك الأزمة الروحية الطاحنة التي عاشها في سبيل بحثه عن الحقيقة التي ينكشف فيها المعلوم انكشافا تاما لا يبقى معه ريبة أو ظن أو يتخلله وهم، وتقرر لدى الغزالي أن كل معلوم لا يتحقق على هذه الصفة لا يوثق به ولا يعول على معطياته المعرفية والعلمية، وفي هذا يقول " ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني "[2] وبالتالي فالشك عند الإمام الغزالي لم يكن فوضويا بل كان له خطوات ومبادئ وأسس أسسه عليها، حتى يتبين من خلال حقيقة اختلاف الفرق وتباين المذاهب، وأيها على صواب وأيها على غيره، وهذا يدلنا على مدى اهتمام الغزالي بهذا المنهج، أما عن

١- ميزان العمل: الغزالي، تحقيق وتقديم: د/ سليمان دنيا، صـ٤٠٩

٢- المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٤

الخطوات التي سار عليها الشك عند الغزالي، أو المبادئ التي أقامه عليها فتتمثل فيما يلي:

أولا: الشك في التقليد

كانت هذه الخطوة هي أول مراحل الشك عند الغزالي، فقد شك في التقليد لأنه رأى أن اليقين لا يتأتى من التقليد، وأن التقليد لا يمكن أن ينتج علما يقينيا لا يبقى معه شك، وقد مر بنا آنفا أن العلم الذي ينشده الغزالي هو العلم الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا تاما لا يبقى معه ريبة أو ظن أو وهم، وكل هذا لا ينفك عنه التقليد، ومن ثم طبق منهج الشك على التقليد، يقول الغزالي "انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصُر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: كل مولودٍ يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يُهودانهِ، وينُصرانهِ، ويُمجِّسَانِهِ، فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات"[١]، فأول ما نبذه الغزالي بواسطة الشك في سبيل بحثه عن الحقيقة والوصول إليها، التقليد، إذ رآه لا ينتج علما يقينيا، فاعتناق مذهب من المذاهب لابد وأن يكون قائما على اقتناع فكري وقلبي لا على مجرد التقليد فقط، لهذا اعتبر الغزالي المقلد كرجل أعمى يسير خلف آخر لا يحسن الطريق سيورده موارد الهلكة، يقول "فجانب الالتفات إلى المذاهب، واطلب الحق بطريق النظر، لتكون صاحب مذهب، ولا تكن في صورة أعمى تقلّد قائداً يرشدك إلى طريق وحواليك ألف مثل قائدك ينادون عليك، بأنه أهلكك

١- المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٣

وأضلك عن سواء السبيل، وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك، فلا خلاص إلا في الاستقلال "[1]

وفي معرض نبذ التقليد والشك فيه، يقرر الغزالي أن التقليد ليس قائما على اقتناع العقلي والقلبي بل هو في معظمه قائم على التعصب، والتعصب إنما هو في حقيقته حجاب يحجب صاحبه عن المعرفة الصحيحة، وبالتالي يبقى أن التقليد لا ينتج علما يقينيا، يقول الغزالي " إنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب .. فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلاً "[2]

ثانيا: الشك في الحسيات

إذا كان الغزالي شك في التقليد، فليس بمستغرب أن يشك في الحسيات، إذ التقليد في حد ذاته قائم على الحسيات، بل إن كثيرا من المعارف طريقها الأصيل هو الحسيات، ومن ثم تحول الغزالي عن طريق المعارف التقليدية، إلى المعارف الحسية، ولما كان الغزالي يريد انكشاف المعلوم انكشافا تاما، فقد نظر إلى المعطيات والمعارف الآتية من طريق الحسيات فرأى في كثير منها أن الشروط التي يتغياها في المعرفة اليقينية غير متوفرة، ومن ثم أخضع الحسيات للشك، فاتهمها بعدم يقينية المعطيات المعرفية الآتية من طريقها، يقول الغزالي " فأقبلت بجد بليغ، أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهي بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً "[3]، وقد أخضع الغزالي بعض الحواس لاختبار معطياتها المعرفية

١- ميزان العمل: الغزالي، صـ٤٠٩

٢- إحياء علوم الدين: الغزالي، جـ٣، صـ٧٥

٣- المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٥

كحاسة البصر، فرأى أن ما تنتجه من معارف لا يسلم من الشك والريبة، يقول " من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة – بعد ساعة – تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل بالتدريج ذرة، ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار "[١]، هذا الاختبار جعل الغزالي يفقد االثقة بمصادر المعرفة الحسية وبالتالي في معطياتها المعرفية، فتقرر لديه أن الحسيات ليس ثمة يقين فيها.

ثالثا: الشك في العقليات

بعد شك الغزالي في الحسيات، لابد له أن يبحث عن طريق آخر يوصل إلى المعرفة اليقينية التي ينشدها، فاتجه إلى العقل الذي كان حاكما على الحس، إذ إن تكذيب الحس كان منبعه ومصدره الرئيس حاكم العقل، على حد قول الغزالي "ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته "[٢]، ومن ثم فقد توقف الغزالي أمام هذا الحاكم (العقل) ليرى معطياته المعرفية ومدى يقينيتها، وبالتالي فقد أخضعه أيضا (حاكم العقل) لمنهج الشك، ويصور لنا الغزالي بطريقة أدبية رائعة كيف أجرى شكه في المعطيات المعرفية العقلية، وذلك بطريق حوار خيالي جرى بين المحسوسات (مصادر المعرفة الحسية) والعقليات (مصدر المعرفة العقلي – العقل) يقول " قالت الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم

١– المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٦

٢– المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٦

العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته "[١]

وبناءً عليه فقد شك الغزالي في جميع مصادر المعرفة، الحسية منها والعقلية، وكان منهجه في هذا هو الشك المنهجي الذي استطاع الغزالي أن يوظفه لتأسيس معرفية يقينية، فأخضع جميع المعارف لهذا الشك، مستبعدا بهذا المنهج المصادر غير الموثوق في معطياتها المعرفية، مبقيا على ما ثبت يقينيته، وبهذا استطاع الغزالي أن يجعل من الشك المنهجي منهجا قويما في درك الحقائق.

وإذا كنا بصدد التعرف على مدى استعمال علماء الكلام والفلاسفة لمنهج الشك، فحري بنا بعد عرضنا للإمام الغزالي أن نعرج على ديكارت وشكه، لما سبقت إليه الإشارة أن ديكارت قد استفاد من شك الغزالي، لهذا ترى كثيرا من الدراسات في الفكر الفلسفي تقرن دائما بين الغزالي وديكارت، ولا يبعد أن يكون ديكارت قد اطلع على تراث الإمام الغزالي، فالتأثير والتأثر بين السابق واللاحق مما يعرف في الحضارات الإنسانية لاسيما في مجال العلم والفكر.

أما عن وجود شبة كبير بين الغزالي وديكارت فيما يتعلق بالشك، فيقول د. زقزوق " توجد هناك إشارات عامة تشير إلى وجود شبه بين منهج الشك عند كل من الغزالي وديكارت "[٢]، هذه الإشارت لم تكن كافية بالنسبة لأستاذنا الدكتور زقزوق للتأكد من مدى هذا الشبه، فقام بتحرير هذا المُؤلف ليضع أيدي قارئيه على حقيقة مهمة توصل إليها من خلال هذه الدراسة

١- المنقذ من الضلال: الغزالي، صـ٦٦

٢- المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت: د/محمود حمدي زقزوق، صـ١٥

وهي " أن ما بين الغزالي وديكارت من وجه شبه لا يقتصر فقط على منهج الشك، بل يتعداه إلى نطاق أوسع وأعمق، وهو أهمية هذا الشك في تأسيس فلسفتيهما "[١]، وعندما ننظر إلى فلسفة ديكارت الشكية تتأكد من صحة ما ذهب إليه وقرره فضيلة الدكتور زقزوق، فإذا كان الغزالي قد اعتمد الشك كمنهج يوصل إلى الحقائق فكذا فعل ديكارت، وقد قرر هذا المنهج حين قال " للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة في حياته إلى أن يضع الأشياء جميعا موضع الشك بقدر ما في الإمكان "[٢]، وإذا كان الغزالي قد أقام شكه على عدة خطوات فكذلك فعل ديكارت، بل هي تقريبا نفس الخطوات التي كانت للغزالي، وقد تمثلت عند ديكارت فيما يلي:

أولا: الشك في التقليد

بدأ ديكارت أولى مراحل الشك في الموروثات التي يشب عليها الإنسان، فرأى أنه من الواجب عليه أن يخضعها لمنهج الشكن يقول " لقد تلقيت منذ حداثة سني قدرا كبيرا من الآراء الباطلة وحسبتها صحيحة، فكل ما بنيته منذ ذلك الحين على مبادئ هذا حظها من قلة الوثوق لا يمكن أن يكون إلا مشكوكا فيه جدا، وإذن فيلزم إذا أردت أن أقيم شيئا متينا في العلوم أن أبدأ كل شيء من جديد، وأن أوجه النظر إلى الأسس التي يقوم عليها البناء "[٣]، وبهذا يرى ديكارت أن المعطيات المعرفية الآتية من طريق التقليد لا بد وأن تخضع للشك حتى يتم اختبار هذه المعطيات والتأكد من مدى صلاحيتها، ومن ثم يقول " يكفي لإطراحها – أي هذه الموروثات

١- المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت: د/محمود حمدي زقزوق، صـ١٥

٢- مبادئ الفلسفة: ديكارت، صـ٥٣، وانظر: التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٦٥

٣- التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٦٥

المعرفية الآتية من طريق التقليد – أن أجد في كل رأي منها سببا ما للشك فيه "[١]

ثانيا: الشك في الحسيات

كما شك الغزالي في معطيات مصادر المعرفة الحسية، كذلك فعل ديكارت، فنراه قد أخضع مصادر الحس لمنهجية الشك، فبعد أن شك في معطيات الموروثات التقليدية، انتقل بشكه إلى المصادر التي تليها، وهي المصادر الحسية، يقول " كل ما حسبته حتى اليوم أشد الأشياء وثوقا قد تعلمته من الحواس، لكنني تبينت بالتجربة أن الحواس تخدعني أحيانا، وإذن فمن الحيطة ألا أعود إلى الثقة بالحواس "[٢]، يؤكد ديكارت أن جل المعارف المكتسبة تأتي من خلال الحس، بيد أن هذا لم يمنعه أن يعمم عليها منهج الشك، لأن مصادرها ليست ببعيدة عن الخطأ، وهذا ما نعاينه في أحيان كثيرة عند الوقوف أمام معطيات هذه المصادر بالاختبار والتحليل وأيضا التجربة، يقول " التجربة قد دلتنا على أن حواسنا قد خدعتنا في مواطن كثيرة، وأنه يكون من قلة التبصر أن نطمئن كل الاطمئنان على من خدعونا ولو مرة واحدة "[٣]، لهذا قرر ديكارت أن يُخضع هذه المصادر لمنهج الشك، فيقول " لا سبيل لي إلا أن أنظر بعين الشك إلى جميع ما تلقيته عن طريق الحواس "[٤]

١- التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٦٥

٢- التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٦٦

٣- مبادئ الفلسفة: ديكارت، صـ٥٤، وانظر أيضا: قصة الفلسفة الحديثة: زكي نجيب محمود – أحمد أمين، طـ: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، طـ سنة ٢٠٢٠م، صـ٦٠

٤ التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٦٦

ثالثا: الشك في العقليات

حتى تتأكد من أن ديكارت سار نفس المسار الذي اتخذه الغزالي، فإنه لم يتوقف عند الشك في معطيات الموروثات والحسيات فقط بل تجاوز هذا إلى الشك في العقليات تماما كما فعل الغزالي، فيصرح بأن العقل قد يؤدي إلى الزلل، فيقول " العقل كثيرا ما يؤدي بنا إلى الخطأ والزلل "[١] ومما يجدر ذكره في هذا المقام فيما يتعلق بالشك في المعطيات العقلية لدى ديكارت، أنه لم يشك في مجرد أدلة عقلية أو شيئا من هذا القبيل، بل إننا نستطيع أن نقول أن ديكارت أخضع أرقى المبادئ العقلية للشك، أقصد بها المبادئ الرياضية، التي هي محل اتفاق بين جميع العقول، والتي لا يتطرق إليها شك بحال من الأحوال لإجماع العقول عليها، ومع هذا أخضع ديكارت هذه المبادئ العقلية الرياضية لمنهج الشك، ولما كان ديكارت يعلم اتفاق العقول على التسليم بهذه المبادئ نراه يبدأ كلامه بقوله " هنالك حقيقة ثابتة وهي: أن مجموع اثنين وثلاثة هو خمسة دائما، وأن المربع لن يزيد على أربعة أضلاع أبدا، وليس يبدو في الإمكان أن حقائق قد بلغت هذه المرتبة من الوضوح والجلاء يصح أن تكون موضع شبهة خطأ أو انعدام يقين "[٢]، هنا يُقر ديكارت أنه من الصعوبة بمكان أن تكون هذه المبادئ عرضة للشك أو محلا للظن والوهم، ومع هذا يُخضع ديكارت هذه المبادئ لمنهجية الشك، فيقول " لما كنت أرى أحيانا أن غيري يغلطون في الأمور التي يحسبون أنهم أعلم الناس بها، فما يدريني لعله قدر أن أغلط أنا أيضا كلما جمعت اثنين وثلاثة أو أحصيت أضلاع مربع ما "[٣]، ولما كان القارئ يستشعر الحياء في كلام ديكارت، في كونه يُخضع هذه المبادئ لمنهج

١- قصة الفلسفة الحديثة: زكي نجيب محمود – أحمد أمين، صـ٦٠

٢- التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٧٧

٣- التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٧٧

الشك، لكونها محل اتفاق بين جميع العقول، نراه في موطن آخر يتحرر من هذا الحياء، ويؤكد أن هذه المبادئ ليست بعيدة عن الشك حتى وإن كانت ظاهرة جلية، يقول " بوسعنا أن نشك أيضا في جميع الأشياء التي بدت لنا من قبل يقينية جدا. بل نشك في براهين الرياضة وفي مبادئها وإن تكن في ذاتها جلية جلاء كافيا "[1]، وبهذا يجعل ديكارت المبادئ العقلية والرياضية من حيث خضوعا لمنهج الشك شأنها شأن ما سبقها من الحسيات والتقليد.

الفرق بين شك الغزالي وديكارت

إذا كان الغزالي قد استخدم منهج الشك في سبيل الوصول إلى الحقيقة فكذلك فعل ديكارت، بيد أن ثمة اتفاق في الخطوات واختلاف في النتائج، أما الاتفاق في الخطوات فقد تمثل في أن كلا منهما شك بداية في التقليد، ثم الانتقال إلى الشك في الحسيات، ثم الانتقال إلى الشك في العقليات، أما وجه الاختلاف بينهما، فنجد الغزالي قد ارتمى في أحضان الكشف والذوق معتبرا إياه المنهج الأمثل للوصول إلى الحقيقة، أما ديكارت فنستطيع أن نقول أنه لم يخرج من الشك ولم يستطع الخروج عنه، بل إنه اعتبر أن شكه هو مصدر الحقيقة، فكلما شك استشعر حقيقة وجوده، فهو قد اعتبر الشك نوعا من الفكر والفكر هو أسمى أدلة الوجود عنده فمن يفكر موجود ومن لم يفكر ليس بموجود، وكل حقيقة قابلة للشك، أما الحقيقة الوحيدة التي لا تقبله فهي وجوده، يقول ديكارت " مهما شككت وقضيت على كل شيء مما أعلم، فستبقى لي حقية واحدة تبقى أمام الشك الجارف، وستظل ثابتة لا تميل أمام عاصفة الإنكار التي اكتسحت كل شيء، بل إنها ستزداد يقينا كلما أمعنت في الشك والإنكار، وتلك الحقيقة هي أن هناك ذاتا تشك، فإن من الشك نفسه تتولد حقيقة لا سبيل إلى الطعن في ثبوتها

١- مبادئ الفلسفة: ديكارت، صـ٥٤

ويقينها، هي وجود الشخص الذي يشك "[١]، ومن ثم جعلها ديكارت نقطة ارتكاز أسس عليها فلسفته، وهو في هذا يقول " ولما انتبهت إلى أن هذه الحقيقة: أنا أفكر إذن فأنا موجود، كانت من الثبات والوثاقة واليقين بحيث لا يستطيع اللا أدريون زعزعتها، بكل ما في فروضهم من شطط بالغ، حكمت أني أستطيع مطمئنا أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التي كنت أتحراها "[٢]، وكان من معالم هذه الفلسفة الديكارتية، أن ديكارت ارتقى بهذا النوع من الشك لا ليثبت من خلاله وجوده هو فقط، بل إنه أسس عليه قاعدة لإثبات وجود الإله، ووجود العالم الخارجي، وهكذا " وضع ديكارت هذه القاعدة: أنا أفكر فأنا إذن موجود، واتخذها أساساً أقام عليها فلسفته بأسرها، فمن وجود نفسه أثبت وجود الله، ومن وجود الله أثبت وجود العالم الخارجي "[٣]

*****

١- قصة الفلسفة الحديثة: زكي نجيب محمود – أحمد أمين، صـ٦٠

٢- مقال عن المنهج: ديكارت، صـ١٢٤

٣- قصة الفلسفة الحديثة: زكي نجيب محمود – أحمد أمين، صـ٦٠، وانظر استدلال ديكارت على وجود الله، في: التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ١٣١ وما بعدها .

المبحث الرابع
الشك بين المتكلمين والفلاسفة

يهدف هذا المبحث إلى التعرض لبعض النقاط التي قد تشكل معلما من معالم التمييز بين الشك عند المتكلمين وبين الشك عند الفلاسفة، وليس المقصود بالتمييز هنا التمييز في جانب واحد فقط كأوجه الاتفاق أو الاختلاف في الشك عند كلا الفريقين، بل المقصود بيان الشك عند المتكلمين والفلاسفة في بعض النقاط التي يتأتى بها الوقوف على حقيقته عند كل منهما، وهل ذهبا فيه مذهبا واحدا؟ أم كان الشك له جوهر معين عند المتكلمين مثلا يختلف عنه عند الفلاسفة؟ هل كانت نقطة الانطلاق فيه واحدة؟ هل كان الهدف الذي يسعى له كلا منهما من اتخاذ الشك منهجا واحدا عند كليهما أم مختلفا؟ إلى آخر هذه الأمور، وقد يجمع كل هذه التساؤلات وأكثر عدة نقاط، هاكم بيانها:

أولا : العوامل التي ساعدت على ظهور الشك في الفكر الإسلامي عموما

إذا كان الشك المنهجي قد سار منهجا متبعا في الفكر الإنساني بصفى عامة، ولم يكن وقفا على علماء الفكر الإسلامي وحدهم في إطار الدراسات الكلامية والفلسفية، بل تعداه إلى علماء الغرب فبرز في وجوده في الدراسات الفلسفية الغربية، إلا أن ثمة حقيقة مقررة في تاريخ العلوم وهي: أن علماء الفكر الإسلامي كانوا أسبق من علماء أوربا في اكتشاف الشك المنهجي كقاعدة من قواعد البحث العلمي التجريبي، وإن ثمة عوامل قد ساهمت في اكتشاف هذا المنهج، منها:

العامل الأول: لعل أول عامل من هذه العوامل عامل الفطرة، ولا أكون متجاوزا هنا إن سميتها الفطرة البحثية، لاسيما وأن الحديث يتصل بقواعد البحث العلمي، أقول: عامل الفطرة لأن كل إنسان لديه دوافع ذاتية لاكتشاف الكون من حوله وما فيه من حقائق، ولا ريب أن الإنسان لا يسلم بما يراه من أول وهلة بل يظل مترددا في التسليم به حتى يضع ما يراه على

مائدة الاختبار ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التسليم، فالإنسان حين يرى ظاهرة معينة لا يسلم بها ولا يعدها من قبيل الحقائق إلا إذا تكررت مشاهدتها له مرات عدة وبنفس الكيفية، فيبدأ الإنسان بمقارنة هذه الظاهرة بمرات حدوثها، وكذا بظروف حدوثها، وهذا في حد ذاته نوع من الشك، حتى إذا ما اكتمل للإنسان سبل التصديق وآلياته عدها من الحقائق.

العامل الثاني: هو العامل الخارجي، وهذا العامل من الممكن أيضا أن نسميه عامل التأثير والتأثر، وهو يعكس مدى الصحة النفسية لمن قام به، لأنه يعني – من الناحية النفسية – عدم الانغلاق أو الانزواء أو التقوقع داخل شرنقة زمانية ومكانية معينة دون الانفتاح على الآخرين، بل إن علماء الإسلام انفتحوا على شتى الحضارات من حولهم فأفادوا منها بما لا يتعارض مع دينهم وهويتهم وثقافتهم، ومما يحسن ذكره في هذا المقام: أن انفتاح المسلمين على الحضارات والثقافات من حولهم لم يكن وازعه الترف الفكري بل كان مبدؤه وأساسه تلبية النداء القرآني ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣] لذا نجد ابن رشد فيلسوف ابن قرطبة يقول في ثنايا فهم هذه الآية " النظر في كتب القدما واجب بالشرع "[١]، أما عن الإطار التطبيقي لما جاء فهما من هذه الآية، تراه يقول " ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم – أي تراث الأقدمين – فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان كله صوابا قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه "[٢]، وعن هذا الإطار التطبيق أيضا عند أحد علماء الكلام من المعتزلة، يحدثنا أ. أحمد أمين عن الجاحظ فيقول " وأتت له الثقافة اليونانية من طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن إسحاق

١– فصل المقال: ابن رشد، دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، صـ٢٨

٢– فصل المقال: ابن رشد، دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، صـ٢٦

وسلمويه وأمثالهما "[1] ومن هنا انفتح المسلمون على التراث اليوناني فأفادوا منهم الشك المنهجي، فأخذوه وحسنوه وهذبوه وأضافوا إليه، ونظروا كذلك في هذا التراث فوجدوا فيه الشك المذهبي وطوائفه ورواده فردوا عليهم وأقاموا عليهم الحجج في إبطال منهجيتهم.

العامل الثالث: هو العامل الداخلي، والمقصود به هنا الإسلام، وهذا يثبت صحة ما قيل في العامل الأول (الداخلي) من كون الاطلاع على ثقافات الآخرين لا يحذره الإسلام ولا ينهى عنه، وفي المقابل أوجب الإسلام ألا يتقبل المسلم كل غث وسمين، بل يحثه على التروي والنظر في قبول ما عند الآخر من الأخبار، وهذا في حد ذاته هو التمحيص والتطهير الذي يوحي به الشك المنهجي، فنجد الإسلام يقف بأتباعه موقف الحذر وأخذ الحيطة فيما يتعلق بالأخبار، فيأمر أباعه ويقول هم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] وفيما يتعلق بالأخبار أيضا نجد الإسلام يرفض كل خبر لا ينتمي لليقين، فالإسلام له موقف مع الظنون والأوهام والتخرصات وقول الباطل والزور وغير ذلك، فالله تعالى يقول ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦] ويقول ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم:٢٨] ذلك لأن كل هذه الأنواع من الأقوال لا تسهم في بناء المستوى العرفي اليقيني، بل تهدمه وتقضي عليه، لأنها بعيدة كل البعد عن الصدق واليقين، والبحث العلمي الخالص ركنه الركين الصدق وقاعدته الأساسية اليقين.

١- ضحى الإسلام: أحمد أمين، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ط سنة ١٩٩٧م، ج١، صـ٤٠٥

ثانيا : أوجه الاتفاق والاختلاف بين المتكلمين والفلاسفة في الشك

إذا كان الشك المنهجي يقف في مقابل الشك المذهبي، فيما يتعلق بالمعرفة، إذ يعد سبيلا من سبل الوصول إلى الحقيقة، وابتناء المعرفة على الصدق واليقين، وليس كذلك الشك المذهبي، كما هو متفق عليه، وفي هذا يقول د. يحي هويدي " الشك المنهجي لا يرمي إلى هدم إمكانية المعرفة كما هو الحال في الشك المذهبي، بل هو يرمي على العكس من ذلك تماما إلى الوصول إلى المعرفة اليقينية وإقامتها على أسس سليمة "[١]

الشك المنهجي بهذه الصورة التي هو عليها، كان منهجا اعتمده كل من المتكلمين والفلاسفة يتغيون من خلاله معرفة الحقيقة والوصول إلى اليقين، بيد أن المفارقة والاختلاف بينهما كانت فيما يتعلق بميدان التطبيق، فكل منهما كان له ميدان معين مارس فيه تطبيق الشك المنهجي، فبينما مارسه متكلموا الإسلام وفلاسفتهم في الجانب النظري والعملي، نجد فلاسفة الغرب يقصرونه على الميدان النظري فقط .

وحري بنا أن نشير في هذا المقام أن المقصود بمتكلمي الإسلام هنا على وجه الخصوص المعتزلة الذين كان لهم باع طويل في ممارسة منهجية الشك، ولما كان الميدان العملي عندهم أهم وأقوى جانبا من الميدان النظري، وكذا لما كان الشك عندهم من أقوى الطرق الموصلة لليقين، لذا نجدهم لم يتوانوا أن يطبقوا هذه المنهجية في الميدان العملي، لأن هذا الميدان تفوق أهميته الميدان النظري، ومن ثم أخضع المعتزلة الجانب الديني لمنهجية الشك، حتى يكون الإنسان في دينه وعقيدته على يقين تام لا تشوبه شائبة.

١- مقدمة في الفلسفة العامة: د/يحي هويدي، ط: دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة، ط التاسعة سنة ١٩٨٩م، صـ١٣١

ولعل نزوع المعتزلة في تطبيق منهجية الشك في الميدان العملي (الاعتقاد) يرجع إلى: أن مبدأ الحرية كان من أهم المبادئ التي قام عليها الفكر الاعتزالي، والحرية هنا حرية عامة شاملة لميدان الاعتقاد وميدان السلوك، يقول أحد الباحثين " حرص المعتزلة الحرص كله على أن يكون الإيمان حتى لدى العامة في نظر بعض المعتزلة، إيمان العلماء، إيمان علم ومعرفة ويقين، وهو خير وأبقى في نظرهم من إيمان السذج المقلدين الذين يتبعون آراء غيرهم ويتخذونها قلادة في أعناقهم، ولذا يؤكد المعتزلة في تمسكهم بتحرير الفكر بالنظر وتحرير السلوك بحرية الاختيار "[1]، ولما كانت المعتزلة قد آمنت بالحرية على هذا النحو في مجالي السلوك والاعتقاد، فإنها ارتأت أن اعتناق الإنسان للدين وجب أن يقوم على حرية كاملة، وبالطبع فإن هذه الحرية تستدعي تفكيرا حرا في هذا المعتقد، ثم قيام الأدلة الصادقة اليقينية على صدق هذا المعتقد، حتى يكون التكليف به والمسؤولية عنه مما لا مجال فيه لإبداء الأعذار، ولاريب أن هذا يتطلب منهجية الشك حتى يصل الإنسان – بحسب التصور الاعتزالي – من خلالها إلى اليقين.

هكذا أخضع المعتزلة الجانب العملي (الاعتقاد) لمنهج الشك بغية الوصول إلى اليقين في مجال الاعتقاد، ومن هنا نفهم قول المعتزلة " أول واجب على المكلف هو النظر "[2]، ولاريب أن النظر يستدعي التثبت واليقين والتحري والتاكد، وكل هذا مندرج في منهجية الشك، بل من هنا نفهم تصريح بعض الاعتزاليين على رأسهم أبوهاشم الجبائي أن أول الواجبات

١- المعتزلة والفكر الحر: د/عادل العوا، ط: الأهالي للطباعة والنشر – دمشق، ط سنة ١٩٨٧م، صـ١٠٤

٢- شرح الأصول الخمسة: القاضي عبدالجبار، صـ٣٩، وانظر: المواقف: الإيجي، جـ١، صـ١٦٦

على الملكلف الشك، حكى الإيجي مذهبه فقال " وقال أبو هاشم هو أي أول الواجبات الشك "[١]، ويوضح لنا د. أحمد صبحي، المجالات التي يرتبط بها الشك في هذه النظرة الاعتزالية، مبينا أن أول المجالات هو مجال الاعتقاد، فيجب على الإنسان – بناء على هذه النظرة – أن يطرح قناعاته الاعتقادية على مائدة البحث الشكي، حتى يتثبت منها ويكون قبوله لها عن قناعة تامة، يقول " د. أحمد صبحي، فيقول " أول ما يجب على الإنسان من حيث هو مكلف، طرد الاعتقادات والظنون السابقة على التفكير والنظر، لأن الاعتقادات السابقة ليست إلا ظنا ولايغني الظن عن الحق شيئا، إنه يجب ألا يمنع الإنسان عن التوقف أو التثبت إزاء المعتقدات سهو أو وهم أو دعة أو سكون، كما ينبغي ألا يبقى المكلف مقلدا معتقدا أنه بعد النظر والشك سيصل إلى ما وصل إليه بدونه وعن طريق التقليد "[٢]، ومن هنا يسهم الشك في تمحيص الاعتقاد، حتى يكون قائما على اليقين.

وإذا كان المتكلمون قد طبقوا الشك المنهجي في الميدان العملي، فإن فلاسفة الغرب لم ينحوا هذا المنحى، يأتي على رأس هؤلاء الفلاسفة رائد النزعة العقلية رينيه ديكارت، فإنه لم يرتضي تطبيق منهجية الشك أو ممارستها في الميدان العملي (الاعتقادي) لاعتقاده أن الدين يسمو على هذا، لذا جعل ممارسة هذه المنهجية وقفا على الميدان النظري فقط، واستبعد مجال الاعتقاد، يقول ديكارت " إن معتقدا قد رسخ في ذهني منذ زمن طويل وهو أن هنالك إلأها قادرا على كل شيء، وهو صانعي وخالقي على نحو ما أنا موجود "[٣]، فديكارت هنا لم يخضع مسألة وجود الله وهي رأس

١- المواقف: الإيجي، جـ١، صـ١٦٧

٢- في علم الكلام: د/ أحمد محمود صبحي، جـ١، صـ٢٠٣

٣- التأملات في الفلسفة: ديكارت، صـ٧٧

الاعتقاد إلى منهج الشك لأنه رأى أنها حقيقة الحقائق وبالتالي فهي تسمو فوق منهج الشك الذي يطلب به الحقائق، فالله عند ديكارات "منبع كل حقيقة"[١]، وكل الأشياء تصلح أن تكون موضع شك " ولا يستثنى منها إلا وجود الله "[٢]، بل يذهب ديكارت إلى أبعد من هذا حين يقرر " أن من جهل الله، فلن يستطيع أن يعرف شيئا آخر معرفة يقينية "[٣]

كذلك كان من أوجه الاختلاف بين متكلمي الإسلام وفلاسفة الغرب[٤] في مسألة الشك، أن كليهما وإن كانا قد اتفقا على على بداية واحدة بالنسبة لمنهجية الشك، من حيث انطلاق كلا منهما من الشك في المعطيات المعرفية الحسية، وكذا المعطيات المعرفية العقلية، إلا أنهما اختلفا في طريقة الخروج من تلك الحالة الشكية، والخروج من حالة الشك ليس بالأمر الهين، لأن الشك قد يتحول في فترة من الفترات إلى مارد يسيطر على صاحبه ولا يستطيع انفكاكا عنه، وقد يؤثر الشك على عقل الشاك فيجعله يدور في دوائر لا يستطيع مجاوزتها أو الخروج منها، ومن هنا نفهم كيف جعل (فرنسيس بيكون Francis Bacon ١٥١٦-١٦٢٦م[٥]) الأمور

١- مبادئ الفلسفة: ديكارت، صـ٣٩

٢- مبادئ الفلسفة: ديكارت، صـ٣٩

٣- مبادئ الفلسفة: ديكارت، صـ٥٩

٤- ليس المقصود بالمتكلمين والفلاسفة هنا كل المتكلمين وكل الفلاسفة، بل نقصد من الغزالي على وجه الخصوص من المتكلمين، وبيكون وديكارات على وجه الخصوص من الفلاسفة.

٥- فيلسوف إنجليزي تعلم في كمبردج ودرس المحاماة وشارك في الحياة السياسية والوطنية، من مؤلفاته: محاولات في الأخلاق والسياسة – بحث في قيمة وتطور العلوم – التنفيذ الفلسفي. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، جـ١، صـ٣٠٥.

الشكية بمثابة الأوهام التي يجب على الإنسان أن يحترز منها، وقد حصرها في أربعة أوهام هي " أوهام القبيلة، وأوهام الكهف، وأوهام السوق، وأوهام المسرح "[١]، هذه الأوهام أو الكهوف إما أن يخرج منها الإنسان، أو تصبح قبراً له

بيد أن المتكلمين والفلاسفة استطاعوا الخروج، فبينما خرج المتكلمون من شكهم ملتمسين اليقين في طريق الذوق والمكاشفات، فقد خرج الفلاسفة من شكهم ملتمسين اليقين في طريق البرهان العقلي، وإن كلمة ديكارت الشهيرة: أنا أفكر إذاً فأنا موجود، توحي بهذا.

والمتكلمون بهذا يعلنون أن الوصول إلى اليقين مكفول للذوق الذي هو: نور يقذفه الله في القلب، أما الفلاسفة فقد جرجوا من الشك خروجا عقلانيا، وهم إن لم يصرحوا بهذا فقد ألمحوا إليه بواسطة الكوجيتو الديكارتي الذي تلخصه عبارة: أنا أفكر إذاً فأنا موجود، فالتفكير الذي كان مقدمة الاستدلال على الوجود، هو عملية عقلية صرفة، فالتفكير يساوي اليقين، والذي كان مقدمة لليقين هو الشك، وكأن اليقين يبدأ من حيث يتنهي الشك.

وقد كان من أوجه الاتفاق بين المتكلمين والفلاسفة عموما، أن كلاهما اتخذ من الشك موقف نقدياً، وكان هذا هو الظاهر من موقف كليهما من الشك، بيد أني أعتقد أن موقف المتكلمين والفلاسفة من الشك كان موقفا تأسيسياً أكثر منه نقديا، ذلك لأن كلا منهما لم ينزع إلى الشك بغية النقد فقط، بل نزعوا إليه بغية الوصول إلى اليقين، فكان الشك بالنسبة لهم بمثابة التأسيس لليقين.

١- تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، صـ٤٦، وانظر: قصة الفلسفة الحديثة: زكي نجيب محمود – أحمد أمين، صـ٤٢، وانظر: مقدمة في الفلسفة العامة: د/يحي هويدي، صـ١٢٧

ومما يُشار إليه في هذا المقام: أن اعتماد المتكلمين والفلاسفة للشك المنهجي، كمنهج تتأسس عليه الحقائق، هو في حد ذاته إنكار ورفض منهم لما يقابل هذا النوع من الشك، أعني به: الشك المذهبي الهدام، وقد كانت هذه المقاومة مقاومة نظرية وعملية، وليس أدل على هذا من المحاورة التي وقعت بين أبي الهذيل العلاف وصالح بن عبدالقدوس[1]، وقد أوردها ابن المرتضى في طبقات المعتزلة، فقال "مات لصالح بن عبد القدوس ابن، فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظام وهو غلام حدث فرآه حزينا، فقال: – أي أبو الهذيل – لا أعرف لجزعك وجها إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع، فقال: –أي صالح– إنما أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، فقال: وما كتاب الشكوك؟ قال: هو كتاب وضعته، من قرأ فيه شك فيما قد كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان، قال أبوالهذيل: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات! فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب وإن كان لم يقرأه!"[2]

ومما يجب ذكره في هذا المقام، أن المتكلمين والفلاسفة يوجد بينهما اتفاق في الغاية التي من أجلها استعملوا الشك كمنهج بحثي معرفي، وقد

١– صالح بن عبد القدوس بن عبد الله، كان حكيما أديبا فاضلا شاعرا مجيدا، كان يجلس للوعظ في مسجد البصرة ويقصّ عليهم، وله أخبار يطول ذكرها، اتّهم بالزندقة فقتله المهدي بيده، ضربه بالسيف فشطره شطرين وعلّق بضعة أيام للناس ثم دفن. انظر: معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط الأولى سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، جـ٤، صـ١٤٤٥

٢– طبقات المعتزلة: أحمد بن يحي بن المرتضى، عنيت بتحقيقه: سوسنة ديفلد– فلرز، ط: بيروت – لبنان، ط سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، صـ٤٧

تمثلت هذه الغاية في الوصول إلى معرفة يقينية لا تشوبها شوائب الظن والوهم، وهذا ما عمد إليه فلاسفة الغرب من وراء استخدام الشك المنهجي، فقد استعملوه كمنهج تأسيسي تتأسس عليه المعرفة بضوابطها الصحيحة، ويتأسس عليه اليقين في شكله التام، ولعل هذا ما عناه ديكارت حين أماط اللثام عن جوهر شكه والغاية منه، فقال " ما كنت في ذلك الشك مقلدا اللا أدرية الذين لا يشكون إلا لكي يشكوا، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى، فإنني على العكس، كان مقصدي لا يرمي إلا إلى اليقين، وإلى أن أدع الأرض الرخوة والرمل، لكي أجد الصخر أو الصلصال"[١]

هذه الغاية نفسها التي نجدها عند المتكلمين من وراء اتخاذ الشك منهجا في البحث المعرفي، لقد تمثلت هذه الغاية في الوصول إلى الحق واليقين، وبناء المعرفة على أسس علمية صادقة، وارتكاز الإيمان على أرض صُلبة من اليقين تجعل صاحبه آمنا مطمئنا، لهذا نرى اتفاق أشهر الفرق الكلامية لاسيما الأشاعرة والمعتزلة على كون النظر أول الواجبات على المكلف، وقد امتلأت تواليفهم العقدية والكلامية بالتأصيل لهذا الواجب تأصيلا علميا ماتعا، ولاريب أنهم كانوا يهدفون لإقامة العقيدة في القلوب وفي النفوس على أسس من الصدق والحق واليقين.

*****

١- مقال عن المنهج: ديكارت، صـ١٢٣، ١٢٤

الخاتمة

الحمد وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه أهل الصدق والوفا

بعد هذه الرحلة بصحبة هذا البحث الذي طوفنا فيه حول قضية الشك في رحاب الفكر الإسلامي بين مدرستين من أكبر مدارسه، مدرسة علم الكلام ومدرسة الفلسفة، كيف تعاملت هاتين المدرستين مع مسألة الشك، وكيف طوع علماء الكلام والفلاسفة مبحث الشك في أن يكون مبحثا تأسيسيا تتأسس عليه يقينية الحقائق وصدق المعارف، وفي ختام هذه الرحلة ظهرت لي بعض النتائج وأهمها:

١- الشك المنهجي يختلف في معناه وجوهره عن الشك المذهبي، فالأول خطوة في بناء التفكير المعرفي الصحيح القويم، أما الثاني فهو هدم صريح لهذا البناء، ومن ثم قيل: الإنسان في الشك المنهجي يبدأ شاكا وينتهي عالما عارفا، أما الشك المطلق فيبدأ الإنسان فيه شاكا وينتهي شاكا، فالأول (المنهجي) وسيلة لا غاية، أما الثاني (المطلق) وسيلة وغاية.

٢- الشك حتى يكون صحيحا ومنهجيا لابد أن يتملكه الإنسان لا أن يملك هو الإنسان، فالإنسان يفرضه بمحض إرادته ورغبته كمنهج فكري يصل من خلاله إلى حقيقة صادقة يقينية، أما لو تملك الشك الإنسان فسيسلمه إلى ظنون وأوهام ولن ينتهي به إلى حقيقة معينة.

٣- مجال الشك المنهجي إنما يكون في سائر الأفكار التي تصلح أن تكون مثارا للشك، أما ما يتعلق بالمعتقدات الصحيحة الثابتة فلا يصلح منهج الشك أن يتعلق بها.

٤- ثمة اتفاق في الخطوات واختلاف في النتائج، بين المتكلمين والفلاسفة فيما يتعلق بالشك المنهجي.

٥- ثمة علاقة قوية بين المعرفة والشك، فقد كان الشك في بداية أطواره يمثل طريقا من طرق المعرفة أو مدخلا من مداخلها أو بابا من أبوابها، حيث كان الشك يُعنى بالتحقق من صدق المعرفة، أو التردد بين نقيضين حرصا على صدق المعرفة ويقينيتها، فقد كان الباحث يثير عدة تساؤلات أو افتراضات حتى يصل من ورائها إلى صدق المعرفة.

٦- ارتبط اللشك عند المتكلمين بالجانبين النظري والتطبيقي، بينما عند الفلاسفة كان ارتباطه أكثر بالجانب النظري.

٧- اتفق المتكلمون والفلاسفة في الغاية من وراء الشك، وقد تمثلت هذه الغاية فيك الصول إلى اليقين.

وختاماً: فإن الكمال من شؤون الذات الإلهية، وخلافه من النقص شأن من شؤون البشر، ومن ثم فدعوى الكمال ليست لأحد من البشر، إنما هي اجتهادات جاءت على قدر الوسع وبحسب الطاقة، وهذا ما كان مني في هذا البحث، وإني أنسب ما كان فيه تاما إلى توفيق الله تعالى وكرمه، وما كان فيه من نقص وزلل فمني ومن الشيطان، وحسبي أني ما قصدت الزلل ولا رُمت النقص، وإني أسأل الله جل وعلا رافعا له أكف الضراعة، باسطا إليه يد الحاجة، أن يجبر زللي، وأن يُقوِمَ عِوَجي، وأن يُصَوِب خطأي، وأن يقع هذا العمل من قارئيه موقع الرضا والقبول، فهو تعالى خير مجيب وأكرم مسؤول.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أهل الصدق والوفاء صلاة دائمة ما تبسم فجر فأتحف الجو بالضياء وانقشع هجر فطاب الود والصفاء.

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

*****

ثبت المصادر

١. ابن رشد منهجه وعقيدته: د/بركات عبدالفتاح دويدار، ط: مجمع مطابع الأزهر الشريف – القاهرة، ط الأولى سنة ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م .

٢. الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) تحقيق: الشيخ/ أحمد محمد شاكر، تقديم: د/إحسان عباس، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت – بدون تاريخ.

٣. إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) ط: دار المعرفة، بيروت – بدون تاريخ.

٤. أسس الفلسفة: د/توفيق الطويل، ط: مكتبة النهضة – مصر، ط الثالثة سنة ١٩٥٨م

٥. أطلس الفلسفة: بيتر كونزمان وآخرون، ترجمة: د/جورج كتورة، ط: المكتبة الشرقية – لبنان، ط الحادية عشر سنة ٢٠٠٣م.

٦. أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري): أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) تحقيق: د/محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، ط: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي) ط الأولى سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

٧. أفلاطون: المحاورات الكاملة، نقلها إلى العربية: شوقي داود تمراز، ط: الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت، ط سنة ١٩٩٤م.

٨. الأوائل: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) ط:: دار البشير – طنطا، ط الأولى سنة ١٤٠٨هـ .

٩. براهين وجود الله في النفس والعقل: د/سامي عامري، ط: دار تكوين للدراسات والأبحاث – السعودية، ط الأولى سنة ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م.

١٠. تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط: يوسف كرم، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠١٤م.
١١. تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم، ط: دار المعارف – القاهرة، ط سنة ١٩٤٩م
١٢. تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠١٤م.
١٣. التأملات في الفلسفة الأولى: رينيه ديكارت، ترجمة وتقديم وتعليق: عثمان أمين، تصدير: مصطفى لبيب، ط: المركز القومي للترجمة – القاهرة، ط سنة ٢٠٠٩م.
١٤. تأويل مختلف الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) ط: المكتب الاسلامي– مؤسسة الإشراق، ط الثانية سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١٥. تحرير القواعد المنطقية شرح الرسالة الشمسية: قطب الدين محمود بن محمد الرازي (المتوفى سنة ٧٦٦هـ) ط: مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط الثانية سنة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
١٦. تمهيد للفلسفة: د/محمود حمدي زقزوق، ط: دار المعارف – القاهرة، ط الخامسة سنة ١٩٩٤م.
١٧. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الأولى سنة ٢٠٠١م.
١٨. ثنائية الشك واليقين في المنهج الفلسفي: بحث منشور ضمن أعمال الندوة الفلسفية الثامنة والعشرون للجمعية الفلسفية المصرية – الإسكندرية، ديسمبر سنة ٢٠١٧م
١٩. الجبائيان أبوعلي وأبوهاشم: علي فهمي خشيم – بدون بيانات طباعة.

٢٠. الحيوان: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية سنة ١٤٢٤هـ.
٢١. الحيوان: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية سنة ١٤٢٤هـ
٢٢. ديكارت: د/عثمان أمين، ط: مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط السادسة سنة ١٩٦٩م.
٢٣. سيكلوجية الشك: يوسف ميخائيل أسعد، ط: مكتبة غريب – القاهرة، ط سنة ١٩٨٣م.
٢٤. الشك المذهبي والشك المنهجي: د/مبارك حسن حسين إسماعيل، بحث منشور في: حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد: الثالث، سنة ١٩٨٣م.
٢٥. ضحى الإسلام: أحمد أمين، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ط سنة ١٩٩٧م.
٢٦. طبقات المعتزلة: أحمد بن يحي بن المرتضى، عنيت بتحقيقه: سوسنة ديفلد– فلرز، ط: بيروت – لبنان، ط سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٧. العقل عند المعتزلة: حسني زينة، ط: دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٧٨م.
٢٨. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦ هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، ط الأولى سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٢٩. عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط سنة ١٤١٨هـ .
٣٠. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: أبوالوليد بن رشد (١١٢٦–١١٩٨م) دراسة وتحقيق: د/محمد عمارة، ط: دار المعارف – القاهرة، ط الثالثة سنة ١٩٩٩م.
٣١. الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) ط: مكتبة الخانجي، القاهرة – بدون تاريخ.
٣٢. الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم: د/إبراهيم مصطفى إبراهيم، ط: دار الوفاء – الإسكندرية، ط سنة ٢٠٠٠م.
٣٣. فلسفة العصور الوسطى: د/عبدالرحمن بدوي، ط: وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم – بيروت – لبنان، ط الثالثة سنة ١٩٧٩م.
٣٤. الفلسفة ومشكلة الشك: د/محمود حمدي زقزوق، بحث منشور في: مجلة الدراسات الفلسفية والاجتماعية، طرابلس – ليبيا، العدد الأول سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
٣٥. في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (المعتزلة): د/ أحمد محمود صبحي، ط: دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ط الخامسة سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٣٦. قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن: الشيخ/نديم الجسر، ط: المكتب الإسلامي – بيروت، ط الثالثة سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٣٧. قصة الفلسفة الحديثة: زكي نجيب محمود – أحمد أمين، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠٢٠م.
٣٨. قصة الفلسفة اليونانية: زكي نجيب محمود، أحمد أمين، ط: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – القاهرة، ط سنة ٢٠١٨م.

٣٩. كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٤٠. كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د/مهدي المخزومي، د/إبراهيم السامرائي، ط: دار ومكتبة الهلال – بدون تاريخ.
٤١. كتاب المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د/عبد الرحمن عميرة، ط: دار الجيل – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٩٧م.
٤٢. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت – بدون تاريخ.
٤٣. لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) ط: دار صادر – بيروت، ط الثالثة سنة ١٤١٤هـ .
٤٤. الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت: د/نظمي لوقا، ط: المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة، ط سنة ١٩٧٢م.
٤٥. مبادئ الفلسفة: ديكارت، ترجمة وتقديم وتعليق: د/عثمان أمين، ط: دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة، ط سنة ١٩٧٥م.
٤٦. المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ) تحقيق: خليل إبراهم جفال، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الأولى سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٤٧. المذهب الشكي في الفكر الفلسفي ودوره في تحصيل اليقين عرض وتحليل: مصطفى سليم السيد عطية، بحث منشور في: مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، العدد: الحادي عشر، سنة ٢٠٢١م.
٤٨. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت – بدون تاريخ.
٤٩. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) ط: المكتبة العلمية، بيروت – بدون تاريخ.
٥٠. مع الفيلسوف: د/محمد ثابت الفندي، ط: دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية، ط سنة ١٩٨٧م.
٥١. المعتزلة والفكر الحر: د/عادل العوا، ط: الأهالي للطباعة والنشر – دمشق، ط سنة ١٩٨٧م.
٥٢. المعتزلة: زهدي جار الله، ط: الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت، ط سنة ١٩٧٤م
٥٣. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) تحقيق: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط الأولى سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٥٤. المعجم الفلسفي: د/جميل صليبا، ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، مكتبة المدرسة، بيروت – لبنان، ط سنة ١٩٨٢م.

٥٥. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ط سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٥٦. المغني في أبواب التوحيد والعدل: القاضي أبي الحسن عبدالجبار الأسد آبادي (المتوفى سنة ٤١٥هـ) النظر والمعارف، تحقيق: د/إبراهيم مدكور، إشراف: د/طه حسين، ط: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة – بدون تاريخ.
٥٧. مقال عن المنهج: رينيه ديكارت، ترجمة: محمود محمد الخضري، مراجعة وتقديم: د/محمد مصطفى حلمي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ط الثالثة سنة ١٩٨٥م.
٥٨. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ) عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، ط: دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا) ط الثالثة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٥٩. مقدمة في الفلسفة العامة: د/يحي هويدي، ط: دار الثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة، ط التاسعة سنة ١٩٨٩م.
٦٠. من الشك الفلسفي إلى النسبية العلمية دراسة كرونولوجية: د/شادي هواري، بحث منشور في: مجلة الراصد العلمي، العدد: الخامس، سنة ٢٠١٨م.
٦١. مناهج البحث العلمي: د/عبدالرحمن بدوي، ط: وكالة المطبوعات – الكويت، ط الثالثة سنة ١٩٧٧م.
٦٢. المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال: حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، تحقيق وتقديم: د/جميل صليبا، د/كامل عياد، ط: دار الأندلس، بيروت – لبنان، ط سنة ١٩٦٧م.

٦٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط الثانية سنة ١٣٩٢هـ .
٦٤. المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، د/محمود حمدي زقزوق، ط: دار المعارف – القاهرة، ط: الرابعة سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٦٥. موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب: تقديم: الرئيس شارل حلو، إعداد: الأستاذ روني إيلي ألفا، مراجعة: د/جورج نخل، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٦٦. موسوعة الفلسفة: د/عبدالرحمن بدوي، ط: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٨٤م.
٦٧. الموسوعة الفلسفية العربية: مجموعة من العماء، بإشراف: د/معن زيادة، ط: معهد الإنماء العربي، طرابلس – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٨٦م.
٦٨. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ) تقديم وإشراف ومراجعة: د/ رفيق العجم، تحقيق: د/علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د/عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د/جورج زيناني، ط: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط الأولى سنة ١٩٩٦م.
٦٩. ميزان العمل: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) تحقيق وتقديم: د/ سليمان دنيا، ط: دار المعارف – مصر، ط الأولى سنة ١٩٦٤م.
٧٠. نظرية المعرفة بين القرآن والسنة: د/راجح عبدالحميد الكردي، ط: مكتبة المؤيد – الرياض، ط الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

تم بحمد الله